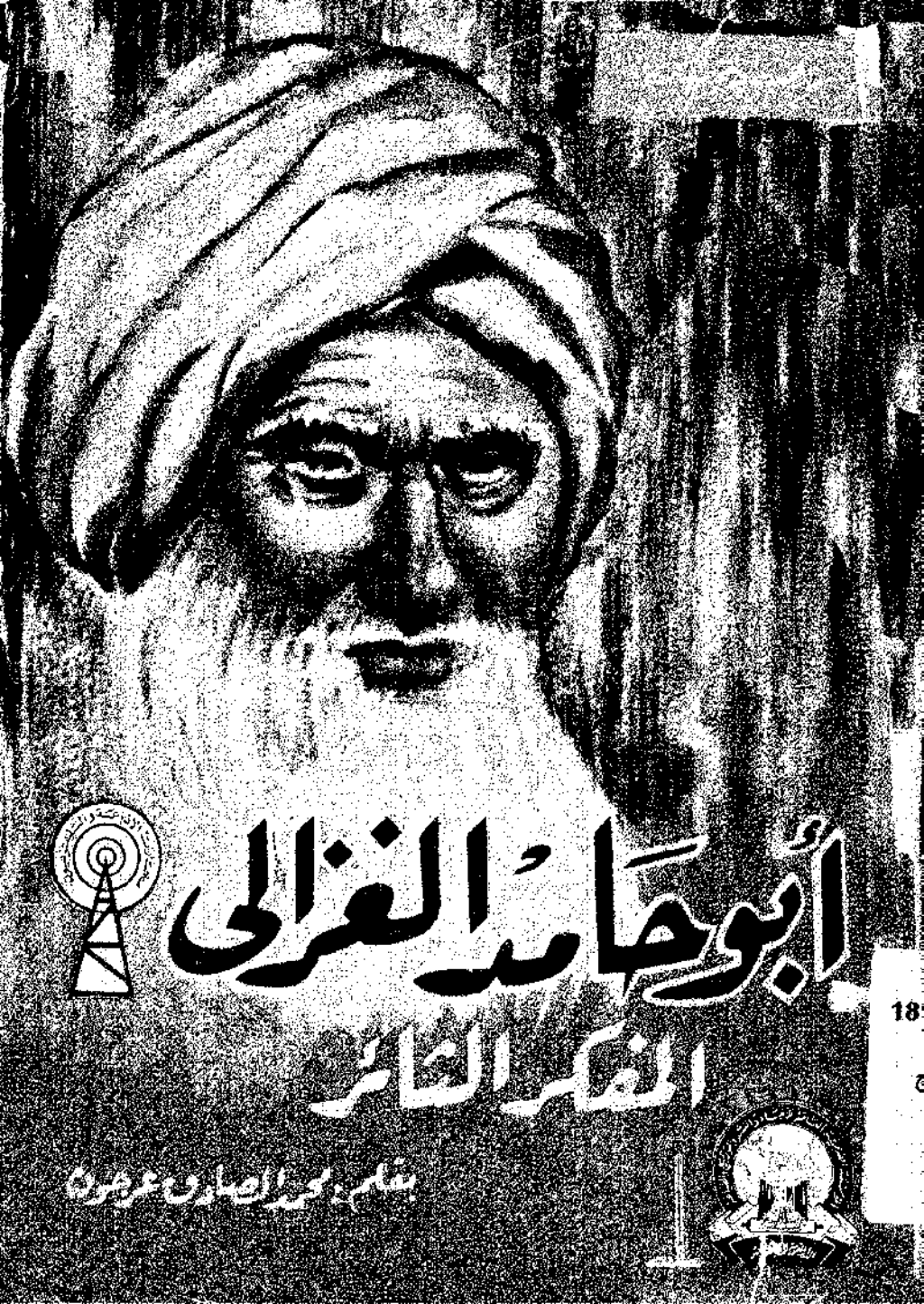

أبو حامد الغزالي

المفكر الثائر

بقلم: محمد الصادق عفيفي

إهداءات ٢٠٠١

المرحوم/ محمد راغب عباس

وكيل وزارة الثقافة سابقا

مذاهب وشخصيات

أبو حامد الغزالي

المفكر الثائر

بقلم

محمد صادق عرجون

بسم الله الرحمن الرحيم

رب أوزعني شكرك بما يليق بعظيم نعمك ، وألهمني حمدك بما يبلغ رضاك ، استمطارا لغيث فضلك يا عظيم الفضل والاحسان .

وأسألك بنور وجهك الذي اضاءت له السموات والارضين أن تصلي وتسلم على خاصتك من خيرة خلقك محمد خاتم النبيين صلاة وسلاما يبلغان من رضاك أن تملأ قلوبنا بحب حبيبك ، وتعرفنا قدره العظيم عندك لنكون في ظل لوائه يوم تكريمه منك لواء الحمد

أما بعد . فهذا بحث عن الامام اللوذعي ، العليم العبقري حجة الاسلام أبي حامد الغزالي رضي الله عنه .

كتبته ملخصا اجابة لطلب المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية اذ كتب الي في مناسبة مهرجان الغزالي بدمشق أن اعد بحثا يلقى أو ملخصه في حفل المهرجان فكتبت ذلك الملخص ومضى المهرجان في رعاية المجلس الموقر ، ـ ومضى البحث الى حيث شاء من بينهم أمره .

وكنت اذا صحبت الغزالي في كتبه وما كتب عنه حين اعداد بحث المهرجان رأيت أن أبا حامد رحمه الله أعمق من مقال أو بحث ملخص يعد على عجل ، ومع أن الغزالي عظيم الحظ في التاريخ ، والكتابة عنه كثيرة لكنه لا يزال يسع الباحثين بعلمه وعقله وقلبه .

وكنت اضمرت العزم أن أعيد النظر في كتابة بحث أوفي عن هذا الامام بعدما رأيت تعدد مناحيه ، وان الكاتبين لم يوفوه حقه ، ولا تزال فيه جوانب غامضة ، ولا يزال في كتبه موضوعات لم يمسها الباحثون الا برفق .

لذلك كتبت هذا البحث ليكون سطرا في تاريخ هذا العبقري العليم ، وأني أرفعه الى شباب الاسلام في أقطار الارض ليقرؤا من تاريخ أسلافهم ما يعرفون به مكانة أمتهم من حياة العبقريين والعبقريين والله يهدي من يشاء الى سراط مستقيم .

عصر الغزالى

القرن الخامس الهجرى الذى كان مدى حياة أبى حـــامد الغزالى ومراحها ، ومسرحها الذى كانت تسرح فى أودية معارفه . تطوف بآفاته — أو على التحقيق — النصف الثانى من ذلك القرن الذى عاشه هذا الامام العبقرى ، وقضى حياته متقلبا فى ارجائه كان أشبه بمحيط يموج بشتى تيارات الافكار والعلوم والمعارف ، والفلسفات والعقائد والمذاهب والنحل وتندفع الى خضمه من جميع جوانبه روافد من التراث الفكرى لتصب فيه عصارة الفكر الانسانى فى مدى قرون من الماضى السحيق منذ كان العقل البشرى سلطان النظر فى الكون وتعمق أسرار الوجود .

فعصر أبى حامد عصر انتهت اليه صفوة الدراسات الاســـلامية فى القرآن العظيم وتفسيره وقراءاته ونغته وألفاظه ، وأسلوبه ، وبلاغته ، ونظمه ووجوه اعجازه ، وسائر علومه وفنونه .

كما انتهت اليه خلاصة الدراسات الاســـلامية فى السنة النبوية دراية ورواية ونقلا وتمحيصا وفهما وتفقها وتدوينا . واختلاف أنظـــار العلماء فى استنباط الاحكام ومواقع الاجتهاد من أصولها .

كما وصلت اليه آثار الصحابة . وآثار تلاميذهم من أئمة التابعين علما وعملا وآثار من جاء بعدهم من أئمة العـــلم وطرائقهم فى استنباط الاحكام للحوادث التى جدت ، ونمو ت الحياة بكثرتها فى الفتوحات التى كانت «بوتقة» انصهرت فيها عمامة امتزاج الامم والشعوب التى استظلت على أيدى الفاتحين بظل الاسلام ودخلت فى ساحته مؤمنة صادقة الايمان أو مسالمة تتربص لتعرف موقفها من الأحداث المفاجئة وموقفها من هـــذا الدين الجديد الذى غير عليهم معالم الحياة ، وفتح لهم منافذ الهـــدايا ودعاهم الى معرفة حقيقة انسانيتهم — ودعاهم الى التـــحرر الفـــكرى ليتخلصوا من عبودية العقائد والافكار الموروثة ، ويعيشوا عيشة انسانية كريمة .

وهذه الدراسات فى أصلى الاسلام — القرآن والسنة — هى التى استقر على أساسها الاجتهاد التشريعى فى الفقه الاسلامى فى عصـــور الأئمة الاربعة وتلاميذهم وأضرابهم من اهـــل الاستنباط وتخريج أحكام الفروع من أصولها .

وهى التى ثارت من حولها قبل ذلك وبعده الاختلافات الفكرية فى جوانب العقيدة التى نشأت على دعائمها الفرق الاسلامية وغيرها من المذاهب والنحل فى أصول الدين وفلسفته ٠

وهى التى كانت منبعا لدراسات لغوية وأدبية ، قامت على قواعدها فنون من الادب والنقد البلاغى الى جانب تدوين متن اللغة وتعقيدها وروايتها مما حفظ تراث العربية نقيا عن الشوائب منذ عصرها الجاهلى الى أن كانت شغل الحياة فى عاصمتى العربية البصرة والكوفة دهرا طويلا ، ثم تخطت الى عدوة الاندلس فى ألوان اضفت عليها تلك الرياض الاسلامية المفقودة كثيرا من طبيعتها الفينانة الخصبة .

وعلى الجملة كانت هذه الدراسات مصدرا لتلك الموسوعات الفقهية التشريعية التى لا حصر لها على ما تنبئنا به فهارس المكتبات العظمى فى العواصم الاسلامية الكبرى فى الشرق والغرب أينما وصل نداء الاسلام واستقرت قدم المسلمين ٠

كما كانت هذه الدراسات مصدرا للموسوعات الفلسفية والعلوم العقلية ودراسة اللغة والادب التى ماج بها العصر العباسى واستبحرت فى عصر الخليفة المأمون ومن بعده من الخلفاء والامراء وملوك الشرق وحكامه فى هذا العصر وعصور الدول المنفصلة عن الحكم العباسى ٠

وعصر أبى حامد ـ الى جانب ذلك ـ عصر تلتقى مع هذه الدراسات الاسلامية الواسعة لقاح حضارات الامم ونتائج العقول ، وثمرات الافكار ، وسبحات الاخيلة واشراقات القلوب ماثلة فى كلمات الزهاد واشعاع الارواح فى اشارات الصوفية ، ونزعات الالحاد فى فلتات الزندقة ، وهدى الايمان ونسك التعبد ، وحيرة الشك وسفسطة المنطق ، ومنطق الفلسفة فى الجدل حول أصول الدين ، وتفلسف العقيدة فى عبارات المتكلمين ، الى جوانب أخرى زخرت بها الحياة الاجتماعية فى محافل الخلافة والملك وأندية المترفين ٠

كل ذلك تلقاه القرن الخامس الهجرى ـ عصر أبى حامد الغزالى ـ ممتزجا بالحضارة الاسلامية ـ التى أنضجها العقل الاسلامى بخصائصه الفذة فى ظل القرآن والسنة وفنونها امتزاجا جعل منها حياة لها سيماها الخاصة ، فلا هى شرقية ، ولا هى غربية ولا هى فارسية أو رومانية ولا هى هندية أو صينية ولا هى عربية ، ولا هى اسلامية خالصة ، ولا هى غير اسلامية ، وانما هى حياة انسانية تمثل معارف الانسان وفلسفته فى الحياة بخيره وشره وغرائزه وعقله ، وروحه ونفسه وضلاله وهداه فى سائر أطواره العقلية والاجتماعية أكمل تمثيل ٠

هذه الحياة وان هي توحدت في صورتها الانسانية العامة لكنها احتفظت في ظل الدراسات الاسلامية التي لم ينقطع عنها مددهـا ، بخصائص عناصرها الجزئية التي تؤلفها بمجموعها كوحدة لها حقيقتها المميزة لوجودها ، فهي اشبه بالانسان في صورته البشرية التي لم تسلب عن اعضائه التي تؤلف حقيقته البشرية خصائصها الجزئية فاليد في الانسان لها مفهومها ومكانها من جسم الانسان ولها عملها فيه ،والعين والاذن والقلب ، وكل عضو من سائر اعضائه له معناه ومفهومه ومكانه وعمله ، لا يطغى عليه غيره ، ولا يأخذ معنى ومفهوم عضو سواه ، ولكنها جميعها تؤلف مجتمعة جسم الانسان - الذي يكتسب باجتماعها على نظامها الالهي ووضعها الطبيعي مفهومه ومعناه ويؤدي عمله في الحياة انسانا لا عضوا في انسان .

فالملك الحضاري في ظل الاسلام جمع اشتات الامم والشعوب بتراثها الفكري وعقائدها وفلسفاتها واخلاقها وعاداتها وعلومها ومعارفهـا وثقافاتها والوان تربيتها وضروب سلوكها في الحياة .

ففلسفة الاغريق ، وتينسك الهنود وحكمة الصين ، وزندقة الفرس وطقوسها الملكية واشتراع الرومان ونظمهم الاقطاعية وسائر ما عـرف على وجه الارض من نتاج العقل الانساني ووثباته وجموحه وضلاله وهدايته وجميع ما عرف من نظم اجتماعية ، كلها آوت في ظل الحضارة الاسـلامية الى ربوة ذات قرار ومعين من طبيعة الاسلام ، فهضمها الاسلام وتمثلهـا في داخل حقيقته الفكرية والاجتماعية صورة انسانية موحدة الاطار وان كانت متعددة الالوان مختلفة الرسوم .

وقد كان من اثر ذلك الامتزاج الحضاري ان اصبح المجتمع الاسلامي على تراامي اطرافه . واتساع رقعته ميدانا لتفاعل تلك العناصر الفكـرية والاجتماعية ، ذلك التفاعل الذي تولدت منه التيارات العقلية والروحية المختلفة التي قامت في ظلها الفرق المختلفة وفي احضان هذه الفرق نشأ الجدل ونهد علم الكلام للدفاع عن العقيدة الاسلامية بسلاح خصومهـا الذين هاجموها بالجدل المنطقي تارة ، وبالسفسطة الجدلية تارات .

ومن باب هذا الجدل الكلامي دخلت الفلسفة بقضاياها في دراسة عوالم ما وراء الطبيعة ، ووضعت الالهيات والروحانيات موضع التحليل المنطقي لتقاس بمقاييس الفروض العقلية .

ومن نافذة هذه الفلسفة في دراسة النفس الانسـانية والبحث في حقيقتها واحوالها وصلتها بالجسم وبعد مفارقته تفلسف التصوف الى ان اصبح بهذا التفلسف النظري المعقد فنا عقليا له قواعده واصـولـه ومصطلحاته التي مزجته في اكثر احواله ولا سيما عند الطبقات المتأخرة

من ارتباطه بالفلسفة النظرية في فهم حقيقة العقل والروح والنفس وهذه الحقائق هي التي يدندن حولها هذا التصوف المتفلسف . ولم يكن ارباب التصوف العملي من متقدمي الطائفة يعنون كثيرا بهذه المباحث النظرية .

الغزالي في عصره

في هذا الخضم الفكري المتلاطم بامواج التيارات العاصفة تهد ابو حامد محمد بن محمد الغزالي عبقريا نسيج وحده فكان امة في اهاب رجل ، ورجلا في عقل امة ، وعلى مهاد هذه الحياة الموارة بأعاصير الفكر نشأ ابو حامدفريدا فيبابه عصاميا بين أقرانه وأترابه بين أبوين فقيرين، تلقته الصوفية وهو في ريعان طفولته ، ومهد صباه فأرضعته بلبانها وحضنته فألفمته ثديها ، وتفتح احساسه بالحياة بين احضانها وشم عبير الوجود في أريجها .

كان ابوه رجلا فقيرا صالحا ، شديد الحب للعلم والعلماء ، يخدمهم ويجد في الاحسان اليهم والنفقة عليهم بما تملكه يده ويطوف على المتفقهة ويجالسهم وكان اذا سمع كلامهم بكى وتضرع وسأل الله ان يرزقه ابنا ويجعله فقيها ويحضر مجالس الوعظ فاذا طاب وقته بكى وسأل الله ان يرزقه ابنا واعظا .

وكان يعمل بيديه في غزل الصوف ليأكل من كسبه وعرق جبينه ، تحريا للحلال الطيب في رزقه وطعمة اولاده فاستجاب الله دعاءه وقبل منه ابتهاله ، فأعطاه ولدين احمد ومحمدا ، وأتم عليه فيهما نعمته ،فكانا من افذاذ العلماء ، كان أحمد ، وهو أكبر الاخوين ، واعظا تلين لصوته الصخور عند سماع وعظه ، وترعد فرائض القساة لقوارع زجره وتهتز قلوب الحاضرين في مجالس تذكيره ، يبكي العيون ، ويستولي على الافئدة والقلوب يوقظ سكارى الاحلام،ويهدي الحيارى من الانام ، ويرد الشاردين الى حظيرة الايمان ويذكر الناسي ، وينبه الوسنان .

ومن لطيف ما يروى في تأثير وعظه ما يتصل بأخيه الامام ابي حامد اتصالا غير مجرى حياته . روى الزبيدي في شرح الاحياء ان سبب سياحة الامام أبي حامد الغزالي وزهده في الدنيا وزخرفها انه كان يوما يعظ الناس فدخل عليه أخوه أحمد فأنشده .

أخلدت بأعضادهم اذ ونوا : وخلفك الجهد اذ اسرعوا
وأصبحت تهدى ولا تهتدي : وتسمع وعظا ولا تسمع
فيا حجر الشحر حتى متى : تسن الحديد ولا تقطع

لمنذ ذلك قطع أبو حامد علائقه بالدنيا وساح فى الارض على قدم الفقراء الناسكين تاركا وراءه جاها عريضا وصيتا داويا ومكانا بين افذاذ العلماء مرموقا وهكذا تحققت فى أكبر الولدين أحدى امنيتي والده الرجل الصالح ٠

أما أصغر الاخوين محمد الغزالى ، فكان عالم الدنيا فى عصره ، وامام الائمة فى زمنه ومدره الامة فى وقته ٠ وحجة الاسلام فى سائر امصاره ولسان الملة فى محافلها بز العلماء فلم يتعلقوا بغبار جواده ، ملأ الدنيا دويا باسمه ، وشغل الحياة بمؤلفاته وكتبه وآرائه وأفكاره فكان ملء سمعها وبصرها ، ولا يزال يشغلها بحثا وراء شخصيته والكشف عن عبقريته وكان فوق ما تخيل ابوه فى امنيته ولو رآه فى جلالة قدره لفتن به فتنة المعجب بما هو فوق عجبه وأمنيته ٠

نشأة الغزالى

كان والد ابى حامد الغزالى رحمه الله قد اصطفى من بين من جالسهم من زهاد العلماء والمتعبدين رجلا صوفيا استصفاه لنفسه واستخلصه لصداقته ووده فلما أحس دنو اجله اوصى الى هذا الصديق الفقير الناسك بابنيه احمد ومحمد ، وهما أعز ماخلف وراءه فى الدنيا ، وقال له وصيته : (ان لى لتأسفا على تعلم الخط واشتهى استدراك مافاتنى فى ولدى هذين فعلمهما ولا عليك ان تنفذ فى ذلك جميع ما أخلفه لهما ، فلما مات رحمه الله اقبل الصوفى على تعليمهما الى أن فنى ذلك النذر اليسير الذى كان خلفه لهما ابوهما وتعذر على الصوفى القيام بقوتهما ، فقال لهما : (اعلما انى قد انفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لى فأواسيكما به ، واصلح ما أرى لكما أن تلجا الى مدرسة فانكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما) ففعلا ذلك وكان هو السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما ٠

ونحن نقف مع هذا النص التاريخى الذى يجمع عليه مؤرخو الغزالى والذى كان يحكيه أبو حامد نفسه بعد ان استحكم امره وعلا قدره ،ويعقب عليه بقوله :

(طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون الا لله) (١) متسائلين

أولا ــ فى أية سن ترك والد ابى حامد ولديه وذهب الى رحمة الله بعد ان أوصى بهما الى صديقه الصوفى ؟

---

(١) طبقات ابن السبكى

ثانيا : من هو ذلك الصوفى ؟ وما مكانته بين أهل العلم وشيوخ الصوفية فى عصره ؟ وهل كان يتولى تعليم ولدى صديقه بشخصه ، فيدرس لهما فنون العلم ويؤدبهما بالعمل ،ويأخذهما بشىء من أدب السلوك الذى كان يؤخذ به المريدون فى طريق القوم ؟ واذا صح هذا فماذا كان يدرس لهما من فنون العلم ومعارف عصره ؟ والى أى حد كانت استجابتهما لوصيهما فى منهجه الذى عاش عليه فى حياته الصوفية ؟

أو أن هذا الشيخ الوصى كان حظه معهما مجرد الاشراف على تعليمهما بالرعاية والانفاق عليهما من مالهما الذى خلفه لهما والدهما لينفق منه فى سبيل تعليمهما كما يشرف الآباء على تعليم ابنائهم بتسليمهم الى معاهد العلم ومدارسه ؟

هذا نوع من الغموض الذى يحيط بأولى خطوات أبى حامد الغزالى نحو الحياة الفكرية التى كونت شخصيته العلمية ، وعلى دعائمها قامت عبقريته ، ومن آفاقها ذاع صيته واشتهرت امامته .

والكشف عن هذا الغموض له أهميته العظمى فى التمهيد الى التعرف على حياته وتتبع خطاه فى سيرته التى نحاول ان نجد فيها مفتاح عظمته .

بيد أن المراجع التى بين أيدينا من مؤلفات الغزالى وفى بعضها يتحدث عن جوانب من سيرته العلمية ، وحياته الفكرية ، والاطوار التى مربها ، لم تسعفنا بشىء من الاجابة عن هذا التساؤل .

وكذلك مؤرخو الغزالى ومترجمو حياته والمعنيون بتفاصيل سيرته من القدامى والمحدثين وأخصهم ابن السبكى فى الطبقات الكبرى التى أطال فيها رشاء القول من حياة الغزالى بما يصلح ان يكون كتابا جامعا مستقلا او جرد من الطبقات . لم يعرج أحد منهم على الحديث عن هذه الخطوة الهامة من نشأة الغزالى التى كان منها اتجاهه الفكرى ، وبها بدأت حياته العلمية التى انتهت به اماما من شيوخ الصوفية وذوى مقاماتهم العالية .

واذا كنا لا نستطيع الاجابة الكاشفة عن شخصية ذلك الصوفى الوصى على ابى حامد وأخيه لنعرف من هو ؟ وما مكانته بين أهل العلم فى عصره ، وما مقامه بين شيوخ الصوفية من اصحاب وقته ، اذ لا سبيل الى هذه المعرفة الا نقل التاريخ ومنطقه وليس عندنا منه شىء فى هذا . فاننا نستطيع ان نستخبر مظان الحوادث وقرائن الاحوال نتقرب منا معرفة المواطن الاخرى عن التساؤل عسى ان يكون فى ذلك مايفتح للبحث باب الحقيقة على ايدى محبى الغزالى من الباحثين .

والذى تدل عليه الملفات والقرائن ان والد ابى حامد ترك ولديه ماضيا الى رحمة الله وهما فى سن الطفولية الشادية المتروكة لاوائل طلب العلم على نهج التربية الاسلامية فى تلك العصور ، وهى مرحلة كانت تبدأ أول ما تبدأ بحفظ القرآن الكريم وتجويده ومعرفة احكام قراءته وترتيله مع شيء من فقه العبادات الاولية فى الطهارة والصلاة وشرائطها واوقاتها وذلك يبدأ فى الاعم الاغلب قريبا من السنة السادسة وهذا ما نرجحه فى السن التى تركهما ابوهما فيها أو قريبا منها اعتمادا على ما يفهم من مضمون الوصية المتقدمة ، كما نرجح ان وصيهما الصوفى كان رجل صدق ، وكان عالما من اهل التربية الروحية والرياضة النفسية بصفة عامة تعويلا على ان أباهما كان يريد بوصيته الى صديقه الصوفى ان يعوضه الله تعالى فى ولديه ما فاته فى نفسه من علم التعلم ، فيجعل من ذريته علماء على نهج ما رآه ، واحبه فى سيرة العلماء الذين عاشرهم وخدمهم وواساهم بنفسه وماله ، فلابد ان يكون اختياره وصى ولديه من طراز من تشتاق نفسه أن يكون ولداه على نهجه وطريقته بقدر ماتصوره ادراكه واتسع له عقله ويتأيد ترجيحنا بظاهر قول ابن السبكى فى الطبقات عند حكايته وصية والد أبى حامد الى صديقه الصوفى بتعليم ولديه وتربيتهما : (فلما مات أقبل الصوفى على تعليمها) وأظهر من عبارة ابن السبكى فى تأييد ترجيحنا عبارة شارح الاحياء الامام مرتضى الزبيدى فانه قال : (فأقام بهما وعلمهما الخط وادبهما) فتعليم الخط والتأديب انما يكونان غالبا فى نحو هذه السن ، ولا يقوم بهما الا من كان وافيا بحقهما على نهج ماكان معروفا فى ذلك الزمان من مفهوم التعليم والتأديب .

ومن هنا نرجح ان وصيهما الصوفى هو الذى تولى بنفسه تحفيظهما القرآن الكريم وتولى تعليمهما ما يتناسب مع سنهما من مبادىء الفقه التعبدى فى الطهارة والصلاة بالقدر المأمور به فى هذه السن كما جاء فى الحديث الشريف من قوله صلى الله عليه وسلم : (مروا أولادكم بالصلاة لسبع) ، وهى سن التمييز ، ويراها الغزالى طورا جديدا (١) من أطوار وجود الانسان الذى يدرك به امورا زائدة على عالم المحسوسات .

واذا صح هذا فلا بد ان يكون هذا الشيخ الصوفى قد سلك فى تربيتهما عمليا مسلك الادب النفسى والتهذيب الروحى عملا وتأسيسا بحاله وذوقه حتى تأهلا لطلب العلم فى مدارسه بين طلابه المنقطعين له .

ونرجح ان يكون ذلك التأهل للاستقلال بطلب العلم فى مدارسه الخاصة كان فى حوالى العاشرة من عمر أبى حامد ، ويزيد عليه اخوه احمد بما يكون بين الاخوة المتقاربين فى الزمن ، وهذه السن هى السن

---

(١) المنقذ من الضلال

التي يبدأ فيها تفتح الادراك المؤهل لطلب العلم استقلالا وفيهـــا يبدأ تعرف الحياة مع القرناء وفي معاشرة الناس ولذلك اعتبرها الشارع طورا آخر بعد طور مجرد الامر بالصلاة ، فأكد فيها طلب العبادة ممن يعقـل القربة في آدائها في الحديث السابق على ما ورد فيه (واضربوهم عليهـا لعشر) .

ويؤيد ما ذهبنا اليه قول الشيخ الصوفي الصدوق لوصييه بعـد نفاد ما خلفه لهما والدهما عنده من مال (واصلح ما أرى لكما ان تلجآ الى مدرسة فانكما من طلبة العلم) فاعتباره لهما من طلبة العلم واطمئنانه عليهما في لجؤهما الى مدرسة من مدارس طلب العلم ، يعيشان فيها عيشة طلبة العلم دليل واضح على انهما كانا في ذلك الحين قد بلغا سنا تؤهلهما لحياة طلبة العلم المستقلة ، ولا تكون هذه السن في الغالب فيما دون العاشرة لاصغرهما .

ويخلص للبحث من هذا ان أبا حامد الغزالي واخاه أحمد تركهمـا والدهما في رعاية وصيه وصديقه الشيخ الصوفي وهما في ريعـــان الطفولية المدركة وانهما مكثا في احضان هذه الرعاية سنوات حفظا فيها القرآن الكريم وتلقيا مبادىء الفقه التعبدي مع العمل والتأسي بسلوك شيخهما الصوفي الذي كان ينزل منهما في الرعاية والتاديب منزلة الوالد البر الشفيق .

ويظهر من اخلاص هذا الشيخ الصوفي وصراحته وتلمس مايصلح لوصييه في طلب العلم بعد اذ عجز عن القيام به انه كان رجل صدق ، لانه أحس عبء الوصية ، وقدر خطر المهمة الملقاة على عاتقه ، وكان قـد نفد النزر اليسير الذي تركه لهما والدهما من المال في امانته وتعذر عليه القيام بقوتهما ، وخشي عليهما التخلف عن تحقيق وصية والدهمـــا ، فصارحهما وارشدهما الى ما رآه اصلح لهما في حياتهما ، واستمعا الى نصيحته ولجأ الى مدرسة في بلدهما من مدارس العلم التي كان يأوي الطلاب اليها منقطعين ، للدرس ، يقيمون في خلواتها ويرزقون فيهـــا برواتب يعيشون بها وكانت هذه المدارس منتشرة في كثير من البـــلاد الإسلامية منذ القرن الرابع الهجري .

* * *

هذا جانب من حياة أبي حامد الغزالي في طفولته مجهول المعـــالم ، ولو لم يكن ابو حامد عبقريا ممتازا في تاريخ الفكر الاسلامي لما كان في جهالة طفولته غرابة ، ولكن امتياز الغزالي الذي بهر الحياة في عصره والاعصر التي توالت بعده هو الذي جعل لهذا الجانب من حياته اهمية خاصة تبعث الاسف لدى كل باحث في سيرته لينظم حلقاته في سلك

متواتر ، تستند فيه كل حلقة طارئة الى حلقة اخرى سابقة ، لان حياة العباقرة تتواكب خطواتها فى نمط من التماسك يحمل فى طياته ارهاصات لما يأتي بعدها من اعجاز :

بيد ان هذه الارهاصات قد تغمرها الحوادث الاجتماعية المتلاحقة فى البيئة التى نهد فيها العبقرى فلا يلتفت اليها التاريخ ، فتبقى مجهولة ابدا او الى حين .

وعصر أبي حامد المفعم بالاحداث الفكرية والاجتماعية المليء بالائمة من العلماء والزهاد والفقهاء والفلاسفة والمتكلمين وزعماء الفرق واهل الجدل والادباء والشعراء ، وسائر قادة الفكر ، وبيئته العامة فى هذا العصر ، وفى قطره وبلده وبيئته الخاصة فى اسرته الفقيرة المكدودة المنزوية فى ذرى الصلاح وتواضع التقوى المتصوفة بمجرد المحبة للصوفية وخدمتهم وتتبع آثارهم فى آداب سلوكهم كل ذلك مما يضعف صوت الارهاصات ولا يساعد على التفات التاريخ الى تدوين مالمع فى طفولية ابى حامد واضرابه ممن نهدوا فى هذا الجو من الحياة .

ولهذا لا يبدأ التاريخ الحديث الجاد عن هؤلاء العباقرة — عند ما ترغمه عبقرياتهم الداوية على ان يفرد لهم فى كتاب الزمن صفحات — الا منذ يبدأون صلاتهم بالمجتمع الفكرى فى معاهده الدراسية « الرسمية » أو يبدأون فى عمل خالد يغير وجه الحياة ويوجه التاريخ، وللانبياء والرسل فى ذلك المثل الاعلى .)

ونحن نرجح أن هذه المرحلة بدأت فى حياة أبي حامد الغزالى عندما تحدث اليه والى أخيه وصيهما الشيخ الصوفى فى صراحة واخلاص عند نفاد ما تركه لهما ابوهما عنده من مال قليل وأنه رجل فقير ، يعيش زاهدا على قدم التوكل ، لا مال له فيواسيهما منه ، وان أصلح ما يراه لهما ان يلجآ الى مدرسة لانهما من طلبة العلم .

ونرجح كذلك ان هذه المدرسة التى لجآ اليها بإشارة شيخهما الصوفى هى المدرسة الرسمية الاولى التى تتلمذ فيها أبو حامد فى دراسة الفقه الشافعى ببلدة طوس على أول استاذ «رسمى» عرف فى تاريخه ، وهو الامام احمد بن محمد الراذكانى وان لم يكن فيما بين ايدينا من المراجع ما يدل على أن « الراذكانى » كانت له مدرسة أو كان أستاذا فى مدرسة وانما المعروف انه كان من فقهاء الشافعية فى بلدة طوس ، بلد أبي حامد الغزالى ولهذا يقول ابن السبكى فى الطبقات : « قرأ ابو حامد فى صباه طرفا من الفقه ببلده على أحمد بن محمد « الراذكانى » تفقه عليه قبل رحلته الى امام الحرمين ويقول فى ترجمة الراذكانى : وهذا الراذكانى أحد أشياخ الغزالى فى الفقه .

وقراءة ابى حامد طرفا من الفقه فى صباه ببلده معقول ان تكون بعد مرحلة الطفولية التى مرت فى حضانة معلمه الاول الشيخ الصوفى ، وهذا هو الوقت الذى لجأ فيه أبوحامدمع أخيه الى مدرسة يحصل لهما منهاقوت يعيلهما على وقتهما استجابة لنصيحة شيخهما .

فالراذكاتى اذا لم يكن له مدرسه خاصة يدرس بها فلا أقل من انه كان فى بلده مرجعا لفقه الشافعيه يدرسه فى مدرسة ، أية مدرسة أو يدرسه فى بيته أو مسجد بلده على عادة علماء عصره لتلاميذ مدرسة كانت معلومة لطلاب العلم ، يلجأون اليها ارتفاق بما هو موظف لاساتذتها وطلابها من من خيرات يحصل لهم منها مايعينهم على دراسة العلم وطلبه وتكون هى التى لجأ أبوحامد وأخوه اليها وكانت السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما .

الغزالى فى مهاد الصوفية

استقبلت الصوفية أباحامد الغزالى فى مهد حياته بين احضان أبوين فقيرين صالحين يعيشان من كسب اليد وعرق الجبين ، تحريا للحلال الطيب من رزق الله ، وكان ابوه محبا للعلم والعلماء ، عاشقا للصوفية والزهاد يواسيهم بما يستطيع الحصول عليه من قليل الكسب يغزل الصوف ويقوم بنفسه على خدمتهم ، ويلوذ بهم ، ويلازم مجالسهم ويسمع وعظهم يتأثر بحالهم ويتمنى على الله ان يرزقه ولدا يكون من العلماء السالكين طريقهم

ولما لم تسعفه الحياة بفسحة العمر بعد رزقه ولديه أحمد ومحمد أوصى بهما الى صديقه وصفيه الشيخ الصوفى الذى كفلهما منذ ان شباعن المهد ، ودرجا فى مدارج الطفولية حتى أوصلهما الى طلب العلم فى معاهده الدراسيه .

فأبو حامد الغزالى تلقى أولما تلقى آداب الصوفية وسلوكهم علما وعملا بقدر ما سمحت به طفولته الغضة المتفتحة كالزهر فى مطالع الربيع على يد رجل لم يعرف عنه الا انه صوفى كان صديقا لابيه ، ثم وصيا عليه وعلى أخيه ، وقد صدق الرجل معهما فى وصايته . ولا بد ان يكون قد صدق معهما فى صوفيته، فلقنهما آداب السلوك وعلمهما اداب الطريق فى سن تكون مرآة النفس باقية فيها على جلاء الفطرة مصقولة لاقطة .

ومرايا النفوس الانسانية لاتتزاحم فيهـــا الصور على كثرتها ولا يحجب بعضها بعضا ، فلكل صـــورة انطبعت فى أديمها مكـــان يحفظهـــا بخصائصها التى استقرت عليها ، وقد تبرزها المرآه عند اســـتدعائها اذا توافرت اسباب ظهورها .

فالسمت الصوفى والسلوك الصوفى ، والادب النفسى على النهج

الصوفي كان اول صورة انطبعت في مرآة النفس والفكر عند أبي حامد الغزالي ، وهي أول نقطة بدأ منها خط سيره في الحياة الروحية والفكرية التي كانت مجالا لعبقرية حجة الاسلام .

ومن غرائب اسرار القدر الالهي في حياة ابي حامد رحمه الله تعالى ان ماكان اول نقطة بدأ بها خط سيره في الحياة كان بعنصره الاصيل آخر نقطة انتهى عندها خط سيره في هذه الحياة ، اعني أن ابا حامد بدأ — عن غير قصد منه — صوفيا ، وانتهى بقصد ونية وبصيرة صوفيا ، والفرق بين الصورتين : صورة البداية ، وصورة النهاية هو الفرق بين صورتين انطبعتا في لوحي مرآتين اختلفتا سعة وضيقا ، وصغرا وعظما ولكن خصائص الصورة وملامحها الاصيلة واحدة في الحالين .

فهل كان لآخر حياة أبي حامد الصوفية التي انتهى اليها بعد تبصر وبحث وتبحر في العلوم والمعارف ارتباط بأول حياته التي بدأ بها صوفيا بأدب التربية وعوامل البيئة دون اختيار أو تفكير — ؟ وهل كان لاول حياة أبي حامد الصوفية تأثير شعوري في آخر حياته الصوفية المفكرة على معنى أن الصورة التي كانت منطبعة في مرآة نفسه دون اختيار منه أو تمهيد لذلك الانطباع الذي كان نتيجة لمجرد ملاقاة المرآة النفسية للصورة الصوفية المصغرة هي التي ظهرت وكان لابد لها أن تظهر عندما توافرت لها أسباب الظهور في اطار مرآتي أعظم اتساعا وأجود صقلا وأصفى اديما بما لايقاس به اطار الصورة الاولى الا كما يقاس العقل الانساني عند الطفل في مهد رضاعه بالعقل الانساني عند العبقري في ذروة تفكيره وذكائه ؟ .

فلو لم تبدأ حياة أبي حامد الغزالي رحمه الله بصورة من الصوفية الساذجة ، ترسبت في خفايا نفسه لما انتهت الى هذه الصوفية المبصرة التي تملكت عليه تفكيره وهو في ذروة عظمته وأخذت بمجامع شعوره وحسه

ليس هذا حتما من الامر في نظر المنطق العقلي ، لكن العلم — والعلم أعم من منطق العقل — لاينكره ، لان العلم يؤيد أثر الترسبات النفسية في ظواهر الوجود النفسي . وظهورها عند استدعائها في الوقت المناسب أكثر مما يؤيد أثر الترسبات العقلية في ظواهر الوجود العقلي ، لان العقل يعتمد في مدركاته على منافذ الحس ، وهي متغيرة لاثبات لها في خزانة العقل ، وأما النفس الانسانية ، أعني الروح الحية المدركة بذاتها فهي لا تعتمد في ادراك الحقائق وتصورها على أمر خارج عنها لانها تدركها بذاتها وطبيعتها ، فادراكاتها ثابتة لا تتغير ، بيد أنها قد تحجب فلا تظهر ، فيتوهم أنها ذهبت ، وقد يدخل بطريق الاشتباه في المدركات لا في نفس الادراك .

هذا التوافق بين بداية أبى حامد الغزالى ونهايته هو ـ فى نظرنا ـ أول خطوة فى الاتجاه الصحيح الى الاهتداء لمعرفة مفتاح شخصيته وهو اتجاه مغفول عنه لم نعلم أحدا من الباحثين فى حياة الغزالى وقف عنده وقفة بحث وتحليل ، تبين معالم الطريق من أوله لدراسة حياة هذا الامام العبقرى مع أنه أحرى جوانب الغزالى بالنظر لانه جانب انفرد به من بين سائر العلماء والمفكرين الافذاذ ومفاتيح شخصيات قادة الفكر انما تكون فى الجوانب التى انفردوا بها ولم يشركهم فيها غيرهم من العباقرة .

قد يبدو هذا الجانب ضئيلا فى حياة الغزالى أو حياة غيره لو كان له فيه شبيه لا يستحق نصب الدراسة ومتاعب البحث ، ولكن كم من أمر صغير فى مظهره كان فى حقيقته مصدرا لعظائم الامور ؟؟

وكان الباحثين فى حيـــاة أبى حـــامد الغزالى ـ على كثرتهم وتعدد مشاربهم ـ شغلوا بأبى حامد العيلم المفكر البـــاحث النظــــار ، الحجة الفيلسوف المتكلم ، الجدلى ، الفقيه الاصولى الصـــوفى بعلمه وعقله ، الحليم المعقول فى تصوفه ؛ عن أبى حامد الصوفى بتربيته وبدايته .

ومن العجيب أن أبا حامد نفسه رضى الله عنه أرخ لحياته فأطنب وفصل ولكنه فى هذا التاريخ شغل بعلمه وعقله عن صـــوفيته فى بداية تربيته ونشأته ، فبقيت تلك المرحلة مجهولة المعالم فى حياة أبى حامد رحمه الله تعالى .

ولامر ما فى غيب الاقدار عاد أبو حامد ـ مختارا أو غير مختـــار ـ فى نهايته من حياته الداوية الى مـــاكان من تقدير الله له فى بدايته الهادئة

شخصية الغزالى التاريخية

وشخصية أبى حامد التاريخية عجيبة من عجائب الابداع الالهى فى نوع الانسان ذلك لانها شخصية يراها الناس بادى الرأى أوضح ماتكون شخصية لشـــهوتها التى طبقت الآفاق ، ولآثارها العلمية التى مـــلأت الارجاء ، ولما امتاز به صاحبها من حدة الذكاء الخارق ، ومن صبر عـــلى مكايدة العقول واقتحـــام لجج العلوم والمعـــارف والافكار فى كافـــة الوانهابنهم لايشبع ، وجراة على اقتحام المضائق الفكرية العصيبة ومغامرة المزالق الفلسفية فى غير تهيب ولا وجل مع قوة عارضـــة فى الجـــدول والمحاجة لم تهزم قط ، حتى اتفقت كلمة مؤرخيه ، انه كان أنظـــر أهل زمانه وأوحد أقرانه فلم تر العيون مثله ولم ير هو مثل نفســـه :

يصفه شيخه المؤســـس لشخصـــيته العلمية الامام أبو المعالى عبـــد

الملك الجويني امام الحرمين ، وكان لهسستاذ عصره بلا مدافع بانه « بحر مغدق » ويروى « بحر مغرق » وكلا المعنيين صحيح واقع في حيـاة أبي حامد الغزالي ٠

وكان امام الحرمين يتبجح به ويفخر بتلمذته له الى أن توج القـدر الالهي الحكيم ذلك كله بهذا التنسك الصوفي المتبتـل في مسـاريب العبودية المشرقة الذي بلغ فيه ابو حامد رضي الله عنه مرتبة من الكشف الروحاني عزيزة المنال ـ كما يقول ـ لا يصح البوح بها لمن لم يكن من أهلها وهو يكتفي في الاخبار عنها لمن لم يذقها بانشاد بيت من الشـعر الرمزي يمثل موقف أبي حامد من نفسه في بهجة اشراق روحه وتفتح قلبه لحقائق الوجود الغيبية ، وموقفه من حياة الناس ودنياهم التي أطرحها وأعرض عنها بعد أن جمعت له زخارفها في قبضة يده راضيا أكمل الرضا عن صوفيته التي تسامت به فوق مظـاهر العلو المـادي الدنيوي الذي كان يغمر عصره وكاد يغمره في عصره ٠

فكان ما كان مما لست أذكره : فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر ٠

هذه الشخصية الواضحة بخصائصها وصفاتها في بادىء الرأي هي نفسها أغمض ما تكون شخصية في تحليلها وتعرف حقيقتها ووضعهـا في مكانها الصحيح من الحياة ٠

ومن ثم لا نجد التاريخ يصنع لابي حامد الغزالي صورة واحـدة مستوية المعالم ولكنه يصوره في صور كثيرة تتجاذبها الآراء والمذاهب ٠

فشخصيته كانت ولا تزال معترك الاقـلام ، وميدانا لاسـلات الالسن منذ دوى اسمه في الآفاق ، وسارت مؤلفاته مع الشـمس حتى بلغت من دنيا العلم والعقل ما قصرت دونه مصنفات العلماء والحكماء ٠

فهو في نظر محبيه المعجبين بعقله وعلمه ، العبقري النظار الذي حطم العقول بقوة عقله ٠ والعالم الاصولي الفقيه المتكلم الذي أرسى قواعد العقائد على دعائم المنطق البرهاني وحماها بسياج الحجة الباهرة والجـدل الذي يقتحم على الخصوم قلاعهم اقتحام مغالبة ليهدم بقوة حجته ما أقاموا من حصون الشبه والاباطيل والفيلسوف الذي خضعت له كبرياء الفلاسفة ودانت لعقله عصبيات الفلسفة فظهر على أسرارها وكشـف عن خبيئاتهـا وبهرج زيفها ، وحقق من عويص قضاياها ما عجز عنه فحولها وجهـا بذتها والصوفي الروحاني والحكيم النفساني الذي تجلت بنور قلبه ، واشراق روحه أسرار الشريعة وحكم تشريعها فابان عنها في الخيـالة بما لم يجر معه في شوطه جواد من الائمة والحكماء مما دفع كثيرا من محبيه من أعلام العلماء الى المبالغة والاغراق في وصف هذا الكتاب الفريد في

بابه . روى الشيخ عبد القادر العيدروس صاحب التعريف بالاحياء عن الامام النووي ــ وهو من هو امامة وفضلا ، وعلما وزهدا وجهارة بالحق ــ انه قال : (كاد الاحياء يكون قرآنا) لو كان قائل هذه الكلمة غير الامام النووي أو لو كان الامام النووي على غير ما يعرفه التاريخ من جـــلالة القدر في الاسلام لقلنا انها كلمة شاعرية اكتسبت ثوبا فضفاضــــا من مبالغات الشعراء ولكن اذا صحت فانها تدخل في باب المحبة وبـاب المحبة واســــع الغفران فيغتفر في المدائح للمحبين مالا يغتفر لســـواهم ، وهي أضخم عنوان على مكانة الغزالي في تاريخ الفكر الاسلامي .

ونحن وان كنا نجل كتاب « احياء علوم الدين » ونعرف له قدره ولا سيما من جهة ما تضمنه من مباحث نفسية وغوص على أسرار الشريعة ببيان ما اشــتملت عليه أحكامها من حكم ومـــا فيـه من اشراق روحي ، وتوارانية مشرقة في مباحثه لكننا لا نقر هذه المبالغاتمهماكان مصدرها

ولذلك كان الحافظ أبو الفضل العراقي مقاربا اذيقول في تخريجه لاحاديث الاحياء (انه من أجل كتب الاسلام في معرفة الحلال والحرام جمع فيه بين ظواهر الاحكام ونزع الى سرائر دقت عن الافهام ، ولم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذرالرجوع الى الساحل بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن) ومن المبالغات اللطيفة المقبولة في وصف هذا الكتاب النفيس ما ذكره التاج السبكي فيالطبقات من قول بعض المحققين :

(لو لم يكن للناس في الكتب التي صنفها الفقهاء الجـــامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والاثر غيره لكفى) فهذا كلام جميل لانه يذكر خصائص كتاب الاحياء التي امتاز بها على كثير من المؤلفـات الاسلامية ، وهي جمعه بين النقل والنظر والفكر والاثر ، ذلك مما امتاز به الغزالي في كثير من مؤلفاته مما يدل على أنه كان بطبعه فقيه النفس غواصا على المعاني الدقيقة التي تتصل بدخائل النفس البشرية .

ومما يدخل في هذا اللون في مدح كتاب الاحياء قول صاحب دائرة المعــارف الوجدية من كتاب عصرنا (هو أفخم أثر اسلامي بعد كتاب الله وسنة رسوله ، وهو أبدع ما وضعه المؤلفون في الاسلام لم يوضع قبله ولا بعده مثله وهو آية من آيات التأليف وغاية من الغايات التي تقصر عنها الهمم)

ومن أحسن ذلك وأعدله قول شيخنا شيخ الاسلام وشيخ الازهر الاســتاذ الشيخ محمد الخضر بن الحســين التونسي رضي الله عنه (فلا عجب أن يبلغ كتاب الاحياء في الغوص على أسرار الشريعة والبحث عن

دقائق علم الاخلاق وأحوال النفس غاية بعيدة فكتاب الاحياء من صنع عقل نشأ في قوة ورسخ في علوم الشريعة وخاض في العلوم العقلية فوقف على كبيرها وصغيرها وفرق بين سليمها ومعيبها وخلص بعد هذا من كدور الهوى وظلمات الحرص على عرض الدنيا .

واذا وجد العلماء في كتاب الاحياء ما أخذ ممدودة فانه من صنع بشر غير معصوم من الزلل ، وكفى كتاب الاحياء فضلا وسمو منزلة أن تكون درر فوائده فوق ما يتناوله العدوان يظفر منه طلاب العلم وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره) .

هذا كلام مشرق بنور العدل والفضل ، نضجت به قريحة رباها الايمان وزينها العلم وحكمها العقل (ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا) .

والصوفية قضهم بقضيضهم متوافقون على اجلال أبي حامد رضي الله عنه ووضعه في مرتبة القطبانية تارة والغوثية أخرى والصديقية مرة فيما هو من أعلا المراتب والمقامات عندهم .

وهم يروون في شأنه عن أكابر شيوخهم روايات وغرائب ، لا سبيل الى عرضها بالتفصيل في بحث يقصد الى تصوير شخصية الغزالي المفكر الذي خاض بحار العلوم والمعارف والفنون الفلسفية في جرأة وجسارة وقوة تعتمد على الاخلاص والبحث العميق ثم خرج منها بعد أن تملى بأصولها وفروعها وأفاض على عصره من ينابيعها — زاهدا في عريض جاهها وواسع صيتها .

والصوفية — كغيرهم — في شان الغزالي — منهم المقتصد في كلمه عنه الذي ينظر اليه والى آثاره فيرى فيه العالم المحقق الذي أضفى على التصوف من عقله وعلمه ما قرب منهجه للناس وحببه اليهم وما أكسبه كثيرا من النظر العقلي المبدد لكثير من الشبه الى جوانب خاصة من الاشراق الروحي والصفاء القلبي النابع من فطرة الغزالي حتى جعله فنا من المعارف الكسبية التي تؤخذ من لباب الشريعة والتي يمكن أن ينالها بثمراتها كل من جاهد نفسه وصفى باطنه من غوائل الكدورات المادية ، وطهرها من رذائل الاخلاق وتسامى بها عن الكون الى دار الغرور وهذا رد للتصوف في الاسلام الى حقيقته الشرعية كما كان عليه متقدمو المتصوفة في الاسلام ، فأبو زيد البسطامي وهو أحد سادات رجال الرسالة القشيرية التي هي أجل ما ألف في التصوف يقول (لو نظرتم الى الرجل يطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف هو عند الامر والنهي وحفظ الحدود والقيام بالشريعة) .

وأبو القاسم الجنيد امامهم المقتدى به يقول (الطرق كلها مسدودة على الخلق الا طريق اقتفاء آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلمنا هذا بالكتاب والسنة) .

وأبو حمزة البغدادي امام المتوكلين والزهاد ـ عندهم ـ يقول (لا دليل على الطريق الى الله تعالى الا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وافعاله وسائر أحواله) .

ويقول أبو سعيد الخراز كل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل . والغزالي رضي الله عنه يذكر هذا في كتبه ولا سيما كتاب « الاحياء » ويكثر من هذه النقول عن أكابر الصوفية ومتقدميهم ليحقق نظريته في تآخي العلم والعقل مع التصوف في الاسلام وليرفع الحجب التي ضربها بعض متفلسفي الصوفية حول التصوف حتى جعلوه الغازا وطلاسم يترجمون عنها بعبارات جامحة عن محجة العقل لا تخضع لمقاييس الشريعة وموازين العلم .

ومن هؤلاء المقتصدين في عباراتهم عن الامام الغزالي الاستاذ المحقق العارف الامام أبو العباس المرسي أكبر تلاميذ أبي الحسن الشاذلي : وقد سئل عن الغزالي فقال : اني أشهد له بالصديقية العظمى .

فأين هذا الكلام الرصين الخارج من خزائن التحقيق من قول بعضهم كما نقله اليافعي « لو كان نبي بعد النبي لكان الغزالي » فما هذا يا أهل الله ؟ والذين يلوذون في الدفاع عن هذا الكلام بكلمة « لو » انما يباعدون بها في أقصى جهدهم بين صاحب هذا الكلام وبين الخروج من نطاق الايمان ، ولو لم يكن في هذه العبارة المغرقة سوى انها تضع الغزالي رحمه الله موضعا لا يرضاه الغزالي العالم الفقيه لنفسه لكفى في الحكم عليها أنها لا توزن بميزان العقل الشرعي .

ومما يقع بين يدي من روايات الاكابر ما رواه ابن السبكي في الطبقات عن الشيخ العارف امام الصوفية في عصره أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقد جاء موسى وعيسى عليهما السلام بالامام الغزالي وقالا لهما أفي أمتكما مثل هذا ؟ قالا : لا ، ومخرج هذا ونحوه في نظرنا ـ اجلال الحب وتعظيم المحبين .

وهذا اللون كثير جدا في ترجمة أبي حامد الغزالي مبثوث في كتب الطبقات وتاريخ الرجال يتناوله مريدوه وعاشقو مذهبه من المتصوفة والمتكلمين ، ونحن لم نورد بعضه الا على سبيل الشاهد لما أحتف بسيرة الغزالي من أقاويل .

وبحسبك ما تقرأ من كلامهم من طبقات ابن السبكي ، والمقريزي والسمعاني وابن عساكر وابن النجار والحنبلي ، والفتح البغدادي وعبد الغافر الفارسي والشعراني وغيرهم ممن لا يحصون كثرة فأبو حامد عند محبيه تصور شخصيته كلمة تلميذه محمد بن يحى التي يقول فيها « الغزالي لا يعرف فضله الا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله» كما يصورها تعقيب التاج السبكي على هذه الكلمة فيقول «يعجبني هذا الكلام فان الذي يجب ان يطلع على منزلة من هو أعلى منه في العلم يحتاج الى العقل والفهم ، ولما كان علم الغزالي في الغاية القصوى احتاج من يريد الاطلاع على مقداره أن يكون هو تام العقل وأقول : لا بد مع تمام العقل من مداناة مرتبته في العلم لمرتبة الآخر ، وحينئذ فلا يعرف أحد جاء بعد الغزالي قدر الغزالي ولا مقدار علم الغزالي اذ لم يجيء بعده مثله) .

وهذا الكلام لايعجبنا من التاج السبكي ، لانه اذا أصح في بعض مقدماته فهو غير سليم في انتاجه لان قوله وحينئذ فلا يعرف احد جاء بعد الغزالي قدر الغزالي ولا مقدار علم الغزالي اذ لم يجيء بعده مثله فاق كل مبالغه وجاوز الدقة في التعبير الى الاغراق والتوسع الفضفاض وخرج الى التحجير على فضل الله اذ ليس في الدنيا بشر يجوز ان يقال في حقه انه لم يجيء بعده مثله سوى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وكلام ابن السبكي حكم على الامة الاسلامية بالعقم وهي أمة متصلة المدد لا ينقطع عنها النبوغ ولاينضب فيمعينها نحير العبقرية وغفر الله للمحبين جمحات الاقلام .

أما متنقصو ابى حامد رحمه الله تعالى فاكثرهم من الفقهاء والمحدثين فكما حمل الحب المحبين على المبالغة والاغراق في مدح ابى حامد والثناء عليه حمل الشانئين الضنائن على المبالغة في التنقيص والعيب ، وقد كان أبو حامد نفسه شديدا على الفقهاء والمحدثين يتناولهم بقلمه ولاذع عباراته ويتنقص دينهم واخلاصهم ويعيب عليهم كثرة تفريعهم لمسائل الفقه وكثرة روايه الحديث وتكالبهم على مظاهر الدنيا ومناصبها وصيتها ، فدفع ذلك فريقا منهم الى أن يقسو عليه وينتقصه وينتسبع كلامه ، يتصيد منه العثرات حتى رماه بعضهم بأنه كاد ينسلخ من الدين ، وبأنه طوى بصوفينه بساط الشريعه كما يقول ابو الفرج ابن الجوزى في كتابه «نقد العلم والعلماء» المشهور باسم « تلبيس ابليس » وكما صرح به ابن القيم في تعقيبه على ما ورده أبو حامد من حكايات وأحوال لبعض مشيخة وأحوال الصوفية وأكابرهم ونكتفي بذكر هذا المثل شاهدا على ذلك فقد ذكر ابو حامد انه

ضاع لبعض الصوفية ولد صغير فقيل له : لو سألت الله تعالى أن يرده عليك ؟ فقال اعتراضي عليه أشد علي من ذهاب ولدي .

قال ابن القيم . لقد طال تعجبي من أبي حامد هذا كيف يحكي هذه الحكايات على وجه الاستحسان لها والرضا عن أصحابها ويعد الدعاء والسؤال لله تعالى اعتراضا ؟ لقد طوى بســاط الشريعة طيا اذ الدعاء مشروع بالاجماع ، وعلى هذا الغرار جرى ابن القيم وأكثر جدا من هذا اللون في النقد .

أما مشيخة الامام أبو العباس بن تيمية ، فقد نقد الغزالي نقدا علميا وانصفه في نقده وكان أقوم قيلا واحسن تأويلا لكلام الغزالي وقد انتهى معه بحسن الظن فيه وقال انه عكف في آخر حياته على قراءة البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة .

وعبارته في كتابه (جواب أهل الايمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أن .

قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ولكن أبو حامد يجعل الحجاج صنعة الكلام ويجعل عمارة الطريق علم الفقه ، ويجعل أخبار الانبياء علم القصص ، ويقول : ان الكلام والجدل ليس فيه بيــان حق بدليل ، بــل انما فيه دفع البدع ببيان تناقضها ويجعل أهله من جنس خفراء الحجيج ويجعل علم الفقه ليس غايته الا مصلحة الدنيا ، وهذا مما نازعه فيه أكثر الناس ، وتكلموا فيه . كما تكلموا على ما ذكره في هذا الكتاب (جواهــر القرآن) وغيره من كتبه من معاني الفلسفة وجعل ذلك هو باطن القــرآن وكلام علماء المسلمين على رد هذا أكثر من كلامهم على رد ذلك بل هذا فيه مما يناقض مقصود الرسول أمور عظيمة كما تكــلموا على ما ذكره في النبوة بما يشبه كلام الفلاسفة فيها ... ثم قال بعد أن بين أن قــول الغزالي في قل هو الله أحد أحسن من قول كثير من الناس فيها وانه اقرب الى الصواب : واما جعله علم الفقه خارجا عن الصراط المستقيم والعمــل الصالح وجعل علم الادلة والحجج خارجا عن الايمان والمعرفة بالله واليوم الآخر فهذا مردود عند جماهير السلف والخلف ، وابو حامد انما ذكر هذا لانه يقول انه انما يعرف معاني ذلك بطريق التصفــية فقط لا بطريــق الخبر النبوي ، ولا بطريق النظر الاستدلالي فلا يعرف ذلك بالسمع ولا بالعقل وهذا مما انكره عليه الناس وصنفوا كتبا في رد ذلك كما فعــل جماعات العلمــاء ولكن عذر أبي حامد أنه لم يجد فيما علمه من طريق الفلاسفة وأهل الكلام ما يبين الحق في ذلك ولم يعلم طرقا عقلية غير ذلك فنفى ان يعلم بطريق النظر فيه .

واما الطريق الخبرية الخبرية فلم يكن له خبرة بما صح من الفاظ الرسول وبطريق دلالة الفاظه على مقاصده ، وظن بما شارك به بعض اهل الكلام والفلسفة ان الرسول لم يبين مراده بالفاظه ، فتركب من هذا وهذا سد باب الطريق العقلي والسمعي وظن ان المطلوب يحصل بطريق التصفية والعمل فسلك ذلك فلم يحصل له المقصود ايضا فرجع في آخر عمره الى قراءة البخاري ومسلم .

وقد تتبع المنكرون على ابى حامد تآليفه بالنقد واحصوا عليه كلمات خرجت [illegible] وتعلقوا بها عليه وقد انتهض ابو حامد نفسه للاجابة عن كثير من اعتراضات المعترضين ونقد الناقدين ، وتصدى تلاميذه ومريدوه للاجابة عنها بما يدفعها عنه أو ينفع ما تحتمله من ايهام ، واملى ابو حامد في اجابته عن ذلك كتيبا سماه جلال الدين السيوطي في الجزء التاسع عشر عن تذكرته «الانتصار لما في الاحياء من الاسرار» وسماه بعض العلماء « الاملاء في اشكالات الاحياء » وسماه آخرون « الاجوبة المسكتة عن الاسئلة المبهتة » وهو كتاب واحد وقد جاء في مقدمته : (سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراتبها وقرب لك مقامات الولاية تحل معاليها في بعض ما وقع في الاملاء الملقب بالاحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه واظهرت التحزن لما شاع به شركاء الطغام وأمثال الانعام وجماع العوام سفهاء الاحلام وذعار أهل الاسلام حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعته وافتوا بمجرد الهوى باطراحه ومنابذته ونسبوا مملية الى ضلال واضلال ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيغ في الشريعة واختلال ، فالى الله ، انصرافهم ومآبهم وعليه في العرض الاكبر ايقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسألون ، وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ... الخ وهذه الاسماء الثلاثة اسم لكتاب واحد وقد قصدنا بهذا التنبيه لمن عسى أن يقع نظره على فهرست مؤلفات الغزالي فيظنها كتبا متعددة وهي اسماء لمسمى واحد ، ونظن ان الغزالي سماه الاملاء في اشكالات الاحياء وهي تسمية معهودة عند المتقدمين مأخوذة من طريقة تأليفهم . والغزالي نفسه يسمى كثيرا من كتبه بالاملاء وقد أطلق في هذا الكتيب نفسه على أشهر كتبه وهو كتاب الاحياء مع اتساعه وضخامته الاملاء الملقب بالاحياء كما نظن ان التسميتين الاخريين من وضع تلاميذه ومريديه .

وكان اظهر من نقد الغزالي وأشدهم عبارة في حقه الامامان ابو عبد الله المازرى الفقيه المالكي المغربي وابو بكر الطرطوشي وقد ساق ابن السبكي في الطبقات كلامهما ورد عليه بما رآه ، ونحن نقبس مما ذكره ابن السبكي ما نرى انه يدخل في بحثنا ويتسق مع رأينا .

قال الامام أبو عبد الله المازرى المالكي ، مجيبا لمن سأله عن حال

كتاب أحياء علوم الدين ومصنفه ، هذا الرجل — يعنى الغزالى ، وان لم آكن قرأت كتابه فقد رأيت تلامذته وأصحابه فكل منهم يحكى لى نوعا من حاله وطريقته فتلوح من مذهبه وسيرته ما قام لى مقام العيان ٠ فانا اقتصر على ذكر حال الرجل وحال كتابه ٠ فان كتابه متردد بين هـــذه والفلاسفه والمتصوفة واصحاب الاشـــارات فأن كتابه متردد بين هـــذه الطرائق لا يعدوها وهو أعرف بالفقه منه بأصوله ، وأما على الكلام الذى هو أصول الدين فانه صنف فيه أيضا وليس هو بالمستبحر فيها ولقـــد فطنت لعدم استبحاره وذلك أنه قرأ الفلسفة قبل استبحاره فى فن اصول الدين فاكسبته قراءة الفلسفة جرأة على المعانى وتســـهيلا للهجوم عـلى الحقائق لان الفلاسفة تمر مع خواطرها ، وليس لها حكم شرعى ترعاه ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعها ٠

وقد أطال التاج ابن السبكى فى الرد على المازرى وجعل محور رده تعصب المازرى لمذهبه فى اصول الدين والعقيدة وهو أشعرى ، وفى الفقه وهو مالكى والغزالى أمام متحرر وهو ان كان يأخذ بمذهب بالاشعرى فى اصول الدين والعقيدة لكنه (وصل من التحقيق وسعة الدائرة فى العلـــم الى المبلغ الذى يعرف كل منصف بأنه ما انتهى اليه أحـــد بعده وربـــما خالف ابا الحسن الاشعرى فى مسائل من علم الكلام ، والاشاعرة وخاصة علماء المغاربة منهم يستصعبون هذا الصنع ولا يرون مخالفة الاشعرى فى كثير لا قليل وكذلك ربما ضعف الغزالى مذهب مالك فى بعض المسائل كما صنع فى المصالح المرسلة) ٠

ثم أخذ ابن السبكى فى تزييف كلام المازرى تفصيلا متتبعا جزئياته بما لا يخلو من التحامل والعصبية المذهبية ٠

والحق ان كلام المازرى فى الغزالى كان يكفى فى رده انه كلام مـــن سمع ولم يرفهو باعترافه لم يقرأ كتب الغزالى ولكنه رأى تلامذته وأصحابه وسمع منهم أنواعا من حالة وطريقته تلوح بها من مذهبه وسيرته ماقام له مقام العيان ، ولهذا كان أمثل ما اشتمل عليه رد التاج السبكى قوله : ان ما ادعاه المازرى من انه عرف مذهبه بحيث قام له مقام العيان هو كلام عجيب ، فانا لا نستجيز ان نحكم على عقيدة أحد بهذا الحكم ، فان ذلـــك لايطلع عليه الا الله ، ولن تنتهى اليه القوانين والاخبار أبدا قلنا : وخاصة اذا كان مصدر ذلك مجرد السماع — قال ابن السبكى : وقد وقفنا نحـــن على غالب كلام الغزالى وتأملنا كتب أصحابه الذين شاهدوه وتناقلوا أخباره وهم أعرف به من المازرى ، ثم لم تنته الى اكثر من غلبة الظن بأنه رجل أشعرى المعتقد ، خاض فى كلام الصوفية ٠

وهذا نهج في نقد افكار الرجال لا يرتضيه المنهج لانهـــج في وزن الرجال لا يرجع في ميزان العدل وما كان ينبغي للامام المازرى ان يحكـم على مثل الغزالى بهذه الاحكام القاسية بمجرد سماع مايحكيه عن أحوال تلامذته وأصحابه ، ثم نتساءل من هم أولئك التلامذة والاصحاب الذين سمع منهم الامام المازرى ما تاوح به من مذهب الغزالى وسيرته ما قام له مقام العيان ؟ أهم من المغاربة أم مـن المشارقة ومحنة كتب الغزالى بـين المغربة مشهورة واصحابه الذين حكوا للمازرى حاله وسيرته ؟ هـل كان لهذه المحنة أثر عليهم ؟ أو كان لهذه المحنة أثر على تصور المازرى الغزالى وكتبه وأفكاره من خلال سجوفها ؟

والامام المازرى كان من المكانة العلمية والذكاء العبقرى والتحصيل العلمى مما جعل ابن السبكى يقول عنه انه كان زكيا أزكى المغاربــة قريحة واحدهم ذهنا بحيث اجترأ على شرح البرهان لامام الحرمين وهو لغز الأمة الذى لا يحوم نحو حماه ولا يدندن حول مغزاه الا غواص عـلى المعانى ثاقب الذهن مبرز في العلم .

وكانت كتب الغزالى ، خصوصا الاحياء منتشرة فى العالم الاسلامى متداولة لعامة الناس وخاصتهم لو أرادها الامام المازرى لينظر فيها تحقيقا لا سمعه لكانت بين يديه ، ولكن هكذا جرت الاقدار بـــين الرجلين والله تعالى يجعلهما ممن قال فيهم فى محكم كتابه ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين) .

وأما الامام أبو بكر الطرطوشى فقد جرى فى نقده للغزالى على نهج الفقهاء والمحدثين الذين ينفرون من طرائق المتكلمين واهل النظر العــقلى كما ينفرون من مسلك الصوفية وهذان هما طريقة الغزالى فى تفكيره وسلوكه لكن الطرطوشى كان انصف للغزالى من المازرى ، وكلامه جــدير بالنظر لانه اجتمع به وباحثه وعرف فضله وقدره العلمى ومكانته الفكرية

ذكر ابن السبكى فى الطبقات ان الطرطوشى ذكر فى رسالته الى ابن مظفر : (فأما ما ذكرت من امر الغزالى فرأيت الرجل وكلمته ، فرأيته رجلا من أهل العلم قد نهضت به فضائله واجتمع فيه العــقل والفهـــم وممارسة العلوم طول زمانه ثم بداله الانصراف عن طريق العلماء ودخـل فى غمار العمـــــال ، ثم تصوف فهجر العلوم وأهلهـــا ودخل فى علوم الخواطر وارباب القلوب ووساوس الشـــيطان ثم شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين ولقد كاد ينسلخ من الدين ، فلما عمل الاحياء عمد يتكلم فى علوم الاحوال ومرامز الصوفية وكان غير انيس بها ولا خبير بمعرفتها فسقط على أم رأسه وشحن كتابه بالموضوعات) وقد رد ابن السبكى على الطرطوشى ردا متحاملا لم ينصفه

فيه وهو من اعلام العلماء وصالحى الامة ، وهو قد انصف الغزالى ولم يعب عليه الا ما عابه عليه كثير من الفقهاء والمحدثين من تركه طريقة الفقة وهو علم الشريعة مع استبحاره في علومها الى طريقه المتصوفه التي لاتقوم في نظر المتشرعين الا على المكاشفات التي لا تؤمن عواقبها ولا يمكن التحرز من مزالقها وهذا ما عناه الطرطوشي بقوله في الغزالى فهجر العلوم وأهلها ودخل في علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان » .

وبين هؤلاء وهؤلاء من المحبين والشانئين فريق نظر الى أبي حامد رحمه الله نظرة الى امام من قادة الفكر في الاسلام خاض بحار العلوم والمعارف بحثا وراء الحقيقة فصورها بقلمه ولسانه كما تصورها بعقله واظهرها للناس في كتبه ومؤلفاته ومجالس املائه ومدارساته كما رآها ببصيرته .

ومن هذا الفريق من استشعر في نفسه اجلال ابي حامد رحمه الله فاستعظم انكار المنكرين ، ونهض مشمرا يدفع نقد الناقدين ويرد اعتراض المعترضين في لون من الحماسة التي قد تغضى على العثرات وقد تدفع الى التحمل في تخريج ما عسى ان يكون هناك من زلات .

ويمثل هذا الفريق فيلسوف الصوفية وامام متأخريهم ابن عربي الحاتمي والمشيخة عبد الكريم الجيلي ، والشعراني ، والسمهودي ؛ والسيوطي والتاج السبكي .

ومنهم من رأى أن أبا حامد وان كان في جلالة قدره بالمحل المرموق في حلبات الفكر وميادين العلم ، لكنه انسان يجوز عليه ما يجوز على غيره من العلماء والائمة من الخطأ مع اعتقاد حسن النية في عقيدته وبذله الجهد مخلصا في سبيل الوصول الى الحقيقة التي ينشدها عن طريق البحث والحق عندهم أعظم من أقدار الرجال وأبو حامد نفسه ينادي بهذا المبدأ في التحرر الفكري فهو يقول في كتاب (معيار العلم) وكتاب (المنقذ من الضلال) و « ضعفاء العقول يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق والعاقل يقتدي بقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله » .

ويمثل هؤلاء الناقدين لابي حامد مع الاعتراف بفضله تلميذه القاضي أبو بكر بن العربي فقد نقد شيخه أبا حامد في قولته المشهورة « ليس في الامكان أبدع مما كان » مع تعظيمه له فقال : (قال شيخنا أبو حامد الغزالي قولا عظيما انتقده عليه أهل العراق وهو بشهادة الله موضع انتقاد ، قال : ليس في القدرة أبدع من هذا العالم في الاتقان والحكمة ولو كان في القدرة ابدع منه وأدخره لكان ذلك منافيا للجود) ثم قال

ابن العربي : ونحن وان كنا قطرة في بحره فانا لا نرد عليه الا بقوله .. فسبحان من أكمل لشيخنا هذا فواضل الخلائق ثم صرف به عن هـــذه الواضحة في الطرائق .

والامام ابن العربي كان شديد التعظيم لشيخـــه أبي حامد عارفا لقدره بصيرا برسوخ قدمه في العلوم والمعارف ، يقول في كتابه « قانون التأويل » ورد علينا (أي في بغداد) ذانشمند (يعني الغزالي) فنزل في رباط أبي سعد بازاء المدرسة النظامية ، معرضا عن الدنيا ، مقبلا على الله تعالى ؛ فمشينا اليه وعرضنا أمنيتنا عليه وقلت له : أنت ضالتنا التي كنا ننشد ؛ وامامنا الذي به نسترشد فالقينا لقاء المعرفة وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة) (١) .

وقال في كتاب (العواصم) عند تعرضه للحديث عن الفلاسفة ورد مذاهبهم الفلسفية فانتدب للرد عليهم بلغتهم ومكافحتهم بأسلحتهم والنقض عليهم بأدلتهم أبو حامد الغزالي رحمه الله ، فأجاد فيما أفاد ؛ وأبدع في ذلك كما أراه الله وأراد وبلغ من فضيحتهم المراد فأفسد قولهم وذبحهم بمداهم فكان من جيد ما أتاه ومن احسن ما رواه ورآه وأفرد عليهم فيما يختصون به دون مشاركة أهل البدع كتابا سماه (تهافت الفلاسفة . ظهرت فيه متنه ؛ ووضحت في درج المعارف مرتبته .

وقد تكررت هذه الكلمة التي أخذت على الغزالي في عديد من مؤلفاته بعبارات متقاربة الالفاظ موحدة المعنى فقد جاءت في كتاب « التوكل » عند الحديث عما يثمر « التوكل » فانه قال : (كل ما خلقه الله من السموات والارض أن امعنوا فيه البصر وطولوا فيه النظر لما رأوا فيه من تفاوت ولا فطور ، وكل ما قسمه الله بين عباده من رزق وأجل ، وسرور وفرح ، وحزن وعجز ، وقدرة وايمان ، وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل لا جور فيه ؛ وحق صرف لاظلم فيه ، وليس في الامكان أصلا أتم منه ولا احسن ولا أكمل ولو كان . وأدخره مع القـــدرة ولم يفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ، ولو لم يكن قادرا لكان عاجزا والعجز ينافي الالهية .

وقال أيضا في الاجوبة المسكتة مصورا لاعتراض المعترض عليه في هذه الكلمة « وما معنى بأن ليس في الامكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبا ولا أكمل صنعا ولو كان وادخره مع القدرة عليـــه كان ذلك بخلا يناقض الجود وعجزا يناقض القدرة الألهية .

وتكرار هذه العبارة في أكثر من كتاب من مؤلفات الغزالي ، ونقد

---

(١) الاستاذ الامام محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر في مقدمة إحدى طبعات الأحياء

تلميذه ابن العربي لها ، وادخال الغزالي نفسه لها في اشكالات «الاحياء» وتكلفه الاجابة عنها يرد على من زعموا ـ دفاعا عن ابي حامد ـ انكار صدور مثل هذا القول منه وانه مدسوس عليه محتجين بأن مؤدى هذه العبارة لا يتمشى الا على أصول الفلاسفة والمعتزلة وأبو حامد رحمه الله قـد رد على هؤلاء وهؤلاء أصولهم في الجود والفيض والصلاح والاصلح ومؤلفاته طافحة بهذه الردود ، ففي كتابي « تهافت الفلاسفة » و «مقاصد الفلاسفة» رد على مذاهب الفلاسفة ، وفي كتب « الاحياء » و « الاقتصاد في الاعتقاد » و « القسطاس المستقيم » و « المستظهري » رد على المعتزلة ونقض أصولهم في الحسن والقبح والصـلاح والاصلح ، فلا يعقل أن يتناقض مع نفسه ويقول هذه العبارة التي لا تتفق مع رده على الطائفتين

الغزالي بين السياسة والمنافسة

وقد كان علماء المغرب من الاندلسيين والافريقيين من أشد ناقدي الغزالي والمنكرين عليه فقد حرفوا كتبه ، واغروا بها العامة وأفتوا الملوك والامراء وذوي السلطان في أقطارهم وأغروهم بوجوب حرقها واعدامها ، وتولى كبر ذلك القاضي ابو القاسم بن محمدين قاضي الدولة التاشفينيةفي عهد أميرها «علي بن يوسف بن تاشفين وكان هذا الامـير كأبيه من قبله لا يخرج في سياسته واحكامه عن رأي الفقهاء الذين كانوا أهل الشورى في الدولة فالدولة لا تقطع أمرا دون رأيهم وفتاواهم ، وكان هؤلاء الفقهاء على مذهب السلف في الاصول والعقائد وعلى مذهب مالك بن أنس في الفروع واحكام الحوادث فلمـا صلت الى أيديهم كتب أبي حامد وخاصة كتاب الاحياء رأوا فيها مخالفة لما ألفوه وجروا عليه فاقاموا النكير عليها وعلى مؤلفها وعدوه مبتدعا وعدوا كتبه ، بدعة في الاسلام ، وكتبوا بذلك خطوطهم ورفعوها الى أمير المسلمين ، يطلبون اليه اعلان تحريم قراءة هذه الكتب ووجوب أعدامها ، ومعاقبة من يحتفظ بها لما فيها من بدع المتكلمين وضلالات الفلاسفة ولما تحويه من تنقيص العلماء والفقهاء وشتمهم وتنفير العامة من متابعتهم والحط من شأنهم وشأن علومهم ، وهذا ـ في واقع الحقيقة هو السبب الاهم في تحريك هذه الفتنة فقد كان أبو حامد شديد النكير على الفقهاء والقضاة ·

وعارض هذا الاجماع فقيه فأمر أبو الفضل بن محمد الحاوي المشهور بابن النحوي في جمع قليل من تلاميذه ومحبيه الذين أبوا ان يشـاركوا أولئك الفقهـاء في هذه الثورة على الغزالي ومؤلفاته ، وكان ابن النحوي محبا للغزالي وكتبه كثير النظر فيها انيسا بها وجعل من كتاب الاحيـاء

كتابه المفضل فى القراءة والاقراء . يقول أبو الحسن علي بن حرزهم لما وصل الى فاس كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بالتحريج على آغاب الاحياء وان يحلف الناس بالايمان المغلظة ان كتاب الاحياء ليس عندهم ذهبت الى أبي الفضل استفتيه فيتلك الايمان فافتاني بانهالاتلزم وكانت الى جنبه فقال لي : هذه الاسفار من كتاب الاحياء وودت انى لم أنظر فى عمرى سواها (١) .

وتروى حكاية عن أبي الحسن بن حرزهم هذا يرويها ابن السبكي في الطبقات وغيره وتتضمن ان ابن حرزهم كان من اشـــد المنكرين على كتاب الاحياء وكان يقول انه بدعة مخالف للسنة وأنه هو الذى طلب الى الســـلطان جمع نسخ الاحياء واجتمع الفقهاء ونظروا فيه ثم اجمعوا على احراقه وكان ذلك يوم الخميس ، فلما امسى ابن حرزهم من ليلة الجمعة راى فى منامه النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما جلوسا والامام ابو حامد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وســـلم قائم وكتاب الاحياء بيده فقال يارسول الله هذا خصمى مشيرا الى ابن حرزهم ثمناول رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الاحياء وقال : يارسول الله أنظر فيه فان كان بدعة مخالفا لسنتك كما زعم تبت الى الله تعالى وان كان شيئا تستحسنه حصل لى من بركتك فانصفنى من خصمى .

وتقول الرواية فى تكميل هذه القصة ان النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه استحسنوه وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بتجريد ابن حرزهم وضربه حد المفترى فضرب خمسة أسواط ثم شفع فيه ابو بكر رضي الله عنه وقال : يا رسول الله انما حصل ذلك منه اجتهادا في سنتك وتعظيما فعفا عنه أبو حامد عند ذلك ، فلما أصبح ابن حرزهم وجد أثر السياط على ظهره وهو يتألم يقول ابن السبكي : وصار ينظر فى كتاب الاحياء ويعظمه ويبجله وهذه حكاية صحيحة حكاها شيخنا الكبير ولى الله تعالى أبو العباس المرسى عن شيخه الشيخ الكبير ولى الله أبى الحسن الشاذلي .

هذه قصة قد يكون الخيال لعب دورا فى نسجها من خيوط الحب لهذا الامام نذكرها من قبيل سابقتها في الدلالة على تعظيم الغزالى ومكانته فى نظر محبيه ، فهل كان ابن حرزهم منكرا عن الغزالى فى أول أمره تأثرا بمألوف فقهاء بلاده من التمسك بمذهب السلف من عدم تأويل النصوص والوقوف عند ظواهرها فى العقائد ثم عاد اليه بالتعظيم والقبول لمذهبه وآرائه بعد هذه الرؤيا اذا صحت الرواية بها ؟! وان الشيخ ابن حرزهم كان على منوال ابن النحوى في معارضة القائمين ضد الغزالى وكان معتقدا فضله وفضل مذهبه وآرائه ، فاستأنس بابن النحوى يتفوق به فى جانب

---

(١) مقال الغزالى والمضرب للاستاذ محمد المنتصر الكتانى بمجلة منبر الاسلام

المعارضة كما تقول الرواية التاريخية السابقة ؟ ترجح هذا على رغم تصحيح ابن السبكي الرؤيا بالحكاية . عبه

بيد أن معارضة ابن النحوي في شجاعته لم تكن لتقوى على الوقوف في وجه ثورة الفقهاء الذين استطاعوا أن يضموا اليهم عامة الناس وأغمار طلبة العلم من تلاميذهم - الى جانب ما كان للفقهاء من مكانة في دولة المرابطين باعتبارهم أهل شوارها مما يشكل خطرا ثوريا على الدولة باسم الدين وهو أمر مرعب ، تخافه الدولة ولا تستطيع مقاومته ، لان الدين كان اذ ذاك هو الاساس الدستورى في قيام الدولة ، ولحمايته من الالحاد والبدع والنزعات المنحرفة تحيا وتنهض وعلى قواعده يقوم بنيانها وتستقر دعائمها .

فلم يكن بد من أن يستجيب أمير المسلمين (على بن يوسف بن تاشفين) لصيحة الفقهاء فأمر بالبحث عن كتاب الاحياء وغيره من مؤلفات الغزالى وشدد على الناس في التفتيش والتنقيب وكتب الى سائر البلدان في مملكته وأغلظ على العامة والخاصة بالايمان المغلظة حتى جمع من نسخ الاحياء الشيء الكثير من بلاد الاندلس والمغرب الاقصى ووضع ما جمع من الاندلسيين في صحن جامع قرطبة وما جمع من بلاد مراكش في صحن مسجدها الجامع وهكذا في سائر الاقطار المغربية واشعلت فيها النيران هنا وهناك .

اثر ذلك اثرا عظيما في نفس ابى حامد الغزالى لما بلغه وهو في بغداد، فتأسف وحزن حزنا ادمى قلبه ، فكان يدعو على دولة التاشفينيين بأن يمزق الله ملكهم كما مزقوا كتابه الذى يعتز به اعتزازا لم يعتزه بكتاب منه في كثرة مؤلفاته وغزارتها وجلالة قدرها لان الاحياء كان يحتوى على عناصر الثورة الكامنة في نفس الغزالى عن عصره الذى قاسى فيه من المتاعب على أيدى زعماء الفرق وأرباب النحل وتقلبات السياسة في دول الاسلام مع قعود الفقهاء وأئمة الدين عن الدفاع واظهار الحق والرد على الملاحدة والمبتدعة وجريهم وراء المناصب التى تقربهم من أهل الدنيا .

روى ابن القطان في كتابه (نظام الجمان فيما سلف من أخبار الزمان) عن عبد الله بن عبد الرحمن شيخ مسن من سكان فاس . قال كنت ببغداد بمدرسة أبى حامد الغزالى ، فجاء رجل كث اللحية على رأسه كرزى « صوف فدخل المدرسة وحياها بركعتين ثم أقبل على الشيخ أبى حامد فسلم عليه فقال الغزالى ممن الرجل ؟

قال الرجل : من أهل المغرب الاقصى .

قال الغزالى : دخلت قرطبة ؟

قال الرجل : نعم .

قال الغزالي : مافعل فقهاؤهـا

قال الرجل : بخـير •

قال الغزالي : هل بلغهم الاحياء •

قال الرجل : نعـم •

قال الغزالي : فما فعلوا فيه ؟

فصمت الرجل ولم يجب فعزم عليه الغزالي ليقولن ما طرأ ، فأخبره باحراقه وقص عليه ما جرى في شأنه ، فتغير وجه الغزالي ، ومد يده بالدعاء والطلبة يؤمنون فقال اللهم مزق ملكهم كما مزقوه واذهب دولتهم كما حرقوه

قال راوي هذا الحديث : فقام محمد بن تومرت السوسي المصمودي وكان من أخصاء تلاميذ الغزالي ومريديه ، لازمه ثلاث سنين وأخذ عنه الاصول والعقائد ، وطريقته في التربية والسلوك ، وقال : أيها الامام ادع الله ان يجعل ذلك على يدي فقال الغزالي : اخرج سيجعل الله ذلك على يدك •

وتقول الرواية متوافقة مع واقع التاريخ في الاحداث التي جرت بعد ذلك على دولة المرابطين ، ان الله تعالى قبل دعاء الغزالي رضي الله عنه وخرج محمد بن تومرت الذي لقب فيما بعد بالمهدي متوجها الى بلاده المغرب آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، متحملا في سبيل دعوته اشد الايذاء ، صابرا محتسبا على قدر الزهد والورع ، لايبالي الدنيا اوقعت في يده ام تحت قدمه ، قوالا بالحق غير هياب ؛ وكان قد طوف في بلاد الاسلام طالبا للعلم داعيا الى الله ، وحج واشتد نكيره على الناس في مكة ، فاخرجوه منها وذهب الى مصر ثم الى الاسكندرية فلم يطب له مقام فيهما ، فركب البحر الى المغرب ونزل بالمهدية فلم يقر له فيها قرار ورحل الى (بجاية) وهناك في مجالس الوعظ والتدريس تعرف على صاحبه وشريكه في تأسيس دولة الموحدين (عبد المؤمن بن علي) الذي كان أول ملوكها فأعجب كل منهما بصاحبه وكشف له عن حقيقة ذاته متواطئين على التوسل والتدبير في ازالة دولة المرابطين « التاشفينية » ، وأظهر ابن تومرت مذهب الاشاعرة في العقائد والرد على المبتدعة بجنس حججهم وعلى طريقتهم وأسلوبهم وتأويل نصوص المتشابه وآيات الصفات كما صنع شيخه واستاذه أبو حامد الغـزالي في مؤلفاته ومجالس مناظراته ومحافل دروسه قال ابن ابي زرع (ان المهدي رحل الى الشرق في طلب العلم ونبغ في علم الاصول والاعتقادات وكان من جملة من لقي من العلماء الشيخ أبو حامد الغزالي •

وقد كان أبو حامد رحمـه الله في طليعـة علماء المشـارقة الذين افتوا (يوسف بن تاشفين) أمير المرابطين ووالد (علي بن يوسف) الذي حرق

الاحياء في عهده بوجوب خلع ملوك الطوائف الاندلسيين الذين استشرى الفساد على أيديهم وتخاذلوا أمام أعداء الاسلام واتسعت الخلافات بينهم واذلوا المسلمين وظلموا الخاصة والعامة وبغوا في الارض بغير الحق ، ومزقوا دولة الاسلام العظمى في هذا الجانب من أرض الله وتقاسموها دويلات هزيلة يحارب بعضهم بعضا والعدو متربص بهم ، يغرى في صدورهم الأحقاد ويوقد نيران التحاسد والبغضاء بينهم ، حتى كان أحدهم لا يبالى أن يستعين باعداء الاسلام من طغاة الصليبيين على منافسيه من ضعفاء الملوك والامراء ، يقول العلامة ابن خلدون (وأفتى يوسف بن تاشفين الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والاندلس بخلعهم وانتزاع الامر من ايديهم وسارت بذلك فتاوى أهل المشرق الاعلام مثل الغزالى والطرطوشى وغيرهما) .

فاستجاب (ابن تاشفين) للغزالى ومن وافقه من الاعلام ودخل الاندلس بجحافله وتجمع لحربه ومقاومته أولئك الملوك الضعاف واستنجدوا على قتاله بالصليبيين واليهود من أعداء الاسلام فهزمهم الله أمامه شر هزيمة واستعاد (ابن تاشفين) وحدة الدولة الاسلامية فى الاندلس والمغرب تحت لوائه .

وقد تجاوبت آفاق الاسلام بهذه الانتصارات الباهرة وذاعت انباؤها فى المشرق فعنى لها العلماء والائمة وكان أشدهم فرحا بها واعجابا بأبطالها الامام أبو حامد الغزالى فألهمه الله أن يتخذ من هذه الانتصارات وسيلة لوحدة الامة الاسلامية فى المشرق والمغرب تحت راية الخلافة فى بغداد بعد ان مزقتها الاهواء الى مجموعة من الدويلات مشتتة هنا وهناك مما أطمع فيها أعداء الاسلام الواقفين له بالمرصاد ، يبغونه الغوائل ويقتصون من أطرافه دوله وممالكه قطعة وراء قطعة حتى انحصر ملك الاسلام فى رقعة من الارض يحوطها الخطر من كل جانب .

فكر الغزالى ـ وقد بلغ فى دولة الخلافة الذروة بأمامته الفكرية وزعامته الروحية فى اتخاذ خطوة سياسية بارعة معتمدا على مكانته وعلى ما يلقه عن الثقات من عدالة ، « يوسف بن تاشفين » وأصالة رأيه ، واستقامة دينه وحبه للخير وشغفه بالجهاد فى سبيل الله ووفرة قوة جيوشه ونظامها وتشبعها بروح الفداء وبعدها عن تميع الحضارة فى دولته الناشئة ، وعلى ما أسداه الى (ابن تاشفين) من منه كبرى بتجميع القلوب حوله وتأييده بفتواه وفتوى العلماء فى ضم بلاد الاندلس الى مملكته التى رأى فيها (ابن تاشفين) وجنوده قوة حربية ساعدته على تحقيق انتصاراته العظيمة بما قذفته فى قلوب أعدائه من الخزلان والاضطراب وبما بعثته فى قلوب جنده من الاستبسال والبطولة .

لم يترك الغزالى الزمن يمر على الاحداث فيقلل من روعتها ويفل من حدتها ولكنه سابقها وأخذ يعمل بسرعة فى السعى لدى دار الخلافة العباسية

فى عاصمة الدولة لتعترف بشرعيه حكم « يوسف بن تاشفين » مؤسس « دولة المرابطين فى المغرب وكتب الى (ابن تاشفين) يبشره ويحضه على نشر العدل بين الرعية ويرغبه فى التمسك بفعل الخير ويخبره بمساعيه الحميدة ويوحى اليه ليستكمل بحسن رأيه وحكيم سياسته مابداه لاجله وأجل دولته التى تعمل على رفعة الاسلام ونصر المسلمين وطلب اليه ان يخطو الخطوات العملية السريعة التى تحقق الغاية النبيلة .

وكان (ابن تاشفين) لديانته واخلاصه وطموحه يتعطش الى أن تبارك الخلافة حكمه وتقر امارته وتؤيده فى فتوحاته وضم شمل المسلمين وجمع كلمتهم .

فلما بلغته كتب الغزالى وفهم مقاصده الشريفة أسرع الى تنفيذ ما اشار به عليه الامام وأرسل الى بغداد بعثة للمثول بين يدى الخليفة وتقديم الشكر وشرح الحال فى بلاد الاندلس وبيان مقاصده (ابن تاشفين) التى ترمى الى توحيد كلمة المسلمين وانقاذ مسلمى الاندلس من ظلم حاكميهم ومن تعرضهم لغارات الفرنجـــة وهتك حرماتهم وسلب أموالهم وسفك دمائهم دون أن يجدوا فى ملوكهم وأمرائهم المستضعفين من يرد عنهم غائلتهم ويحمى حوزتهم

ورأى (ابن تاشفين) بثاقب نظره ونافذ بصيرته أن تكون بعثته الى الحضرة الخليفية من علماء الدين ذوى الآراء الناضجة فى سياسة الاسلام وان يكون منهم من يمت بصلات القرب الروحى والود العلمى والنسب الفكرى الى الامام أبى حامد الغزالى صاحب الفكرة التى أوحى بها اليه ، وان يكون فى رجالها من أبناء الاندلس من يعرف حالها حق المعرفة .

اختار ابن تاشفين فى بعثته الفقيه أبا محمد عبد الله المعافرى وابنـه الامام الحافظ أبا بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى . أحد الافذاذ من أحرار الفكر فى تاريخ الاسلام ، وكان أبو بكر هذا قد اجتمع بالغزالى وتتلمذ عليه وأخذ منه علما غزيرا فى رحلته الى الشام والى بغداد حيث اقام فيهما ، حتى أصبح من خواص تلاميذه أثيرا عنده حظيا بعنايته وكان يجـل شيخه اجلالا عظيما ويقول له : (انت ضالتنا التى كنا ننشد وامامنا الذى به نسترشد) .

وقد أدت هذه البعثة ما حملت من أمانة فى رسالتها أكمل اداء بفضـل تمهيدات الامام الغزالى وامداده بجاهه ومشورته . وعادت الى (ابن تاشفين تحمل اليه الرضا الخليفى واقرار امارته وتبارك فتوحاته .

وبهذه القوة المعنوية وثبت جحافله الى عدوة الاندلس ، فرهبه ملوكها وامراؤها فبايعوه على المناصرة ، وضم شملهم اليه ؛ وجمع كلمتهم عليه ووجههم قوة مجتمعة مع قوة جيوشه الى جهاد اعداء الاسلام ورد غاراتهم

فرعبهم وقـــذف الله فى قلوبهم الوهن والرعب فاندحروا منهزمين هزيمة منكرة . ما كانت تقوم لهم بعدها قائمة لو ظلت قوة الاسلام مجتمعة . متضامنة على عهد خلفاء (ابن تاشفين) كما كانت على عهده ، وفى ظـل امارته وسياسته ولكن تغير الحـــال فى دولة المرابطـين بعد وفاة عميدها ومؤسسها (يوسف بن تاشفين) أوقف اندفاع هذه الانتصارات الباهرة بل قلبها الى هزائم أطمعت أعداء الاسلام فى بقايا مخلفات الدويلات الاسلامية الاسلامية هناك .

ذلك أن خضوع ابنه وخليفته من بعده (على بن يوسف بن تاشفين) الى اغمار الفقهاء من أهل شواره وأصغائه لارائهم فى كتب الغزالى وتاثر الامام لذلك أشد التاثر ودعائه على دولته وتحريضه تلميذه العبقرى الطموح (محمد بن تومرت) الملقب فيما بعد بالمهدى على القيـــــام بتقويض دعائم دولة المرابطين ، كل ذلك قلب الاوضاع وغير وجه الاحداث .

وقد نجح (ابن تومرت) نجاحا مدهشا فى القضاء على دولة (المرابطين واقامة دولة (الموحدين) على انقاضهـا بمعونة صديقه وصفيه (ابـن عبد المؤمن أول امراء (الموحدين) التى قامت على مبادىء الغزالى وأفكاره .

هكذا لعب الامام الغزالى فى السياسة دورا من أخطـر ما عرف فى تاريخ الانقلابات السياسية . فهـــو قد أمد بنفوذه دولة ناشئة هى دولة المرابطين حتى أصبحت لها الكلمة النافذة فى سائر الجانب الغربى من الوطن الاسلامى وهو قد قوض بنيان هذه الدولة بنفوذه وتدبيره وتحريضه ، وأقام عـلى أنقاضها دولة جـديدة هى دولة الموحدين التى أسسهـا وقام بدعوتها تلميذه الثائر الطموح (محمد بن تومرت) الملقب بالمهدى .

وكذلك العبقريات دائما هى التى تصنع التاريخ ، وتوجه الاحداث ، وقد كان الغزالى أحد هذه العبقريات الضخمة فى تاريخ الفكر الانسانى فى ظل الاسلام .

الغزالى بين تيارات النضال

كان عصر أبى حامد الغزالى ـ كما وصفناه ـ عصرا يموج بتيارات الفكر البشرى ويفيض بمنابع العلوم والمعارف الانسانية من ثمرات العقل وتجارب الحس لجميع أرباب الملل والنحل وسائر المذاهب والفرق والطوائف ، وكانت عواصم الخلافة الاسلامية فى الشرق والغرب ميدانا تصول فيه فحول العلماء وزعماء الافكار ودعاة الفرق المختلفة فى محافل المناظرات والجدل ، وحلقات الدرس فى دور العلم ومعاهده ، وفى المساجد ومجامع ذوى السلطان من الخلفاء والوزراء والولاة ممن يحبون مدارسة العلم تمدحا به ومباهاة لمنافسة المتنافسين .

بيد أن هذا العصر الذى سمت فيه كلمة العلم كان عصرا منحل العرى السياسية ، مضطربا فى نظمه الحكومية ، متميعا غير متماسك : تشعبت فيه الدولة الاسلامية العظمى الموحدة الى دويلات هنا وهناك ، اختلفت على نفسها ، وجعل الله بأسهم بينهم ، يحارب بعضهم بعضا : لا تقوى احداها الا على حساب ضعف أختها ، ولا تنهض منها دويلة الى الاخذ بأسباب العزة والعزة الا لتذل جارة لها تواخيها فى ظلال الاسلام .

وكان أبو حامد رحمه الله قد بلغ فى عصره مكانة من عريض الجاه وبعد الصيت وواسع الشهرة مما جعله مصب حسد الحاسدين ، ونال من الحظ الارفع ما فاق به أقرانه ، وخلفهم وراءه مشدوهين ، بل سما بمقامه على أساتذته وشيوخه ، حتى قيل أن استاذه ومؤسس شخصيته الامام الاجل أبا المعالى عبد الملك الجوينى أمام الحرمين ـ وهو من هو كان ـ كما يؤكد مؤرخ الغزالى فى التلمذة عليه عبد الغافر بن اسماعيل الفارسى ـ (لا يصغى اليه سرا ، لابانه عليه فى سرعة العبارة وقوة الطبع ، ولا يطيب له تصديه للتصانيف وان كان متخرجا به منتسبا اليه كما لا يخفى من طباع البشر ، ولكنه يظهر التبجح به والاعتداد بمكانه ظاهرا خلاف ما يضمره) وكما يقول ابن السبكى فى الطبقات :

(ان الامام كان بالاخره يمتعض منه فى الباطن وان كان يظهر التبجح به فى الظاهر)

وصل الغزالى فى امامة الفكر وكفاح المعاصرين من جميع الفرق والطوائف الى مرتبة لم تطمع اليها نفس تعاصره ، ولا طمحت شخصية

في عصره أن تطاوله ، واقتعد من الفضل ذروة حسده عليها أهل الاماني والاحلام من الطامعين ، وحرد عليه لاجلها وزراء عصره وأمراء دهره .

وفي ذلك يقول عصريه وقرينه عبد الغافر الفارسي ، وهو شـــاهد عيان ومشافة بيان (فخرج من نيسابور - أي بعد موت أستاذه امام الحرمين - وصار الى المعسكر واحتل من مجلس نظام الملك محل القبول : واقبل عليه الصاحب لعلو درجته وظهور اسمه ، وحسن مناظرته وجرىء عبارته ، وكانت تلك الحضرة محط رجال العلمـاء ، ومقصد الائمـــة والفصحاء فوقعت للغزالي اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالائمة وملاقاة الخصوم اللداد ومناظرة الفحول ، ومناقدة الكبـار ، وظهر اســـمه في الآفاق ، وارتفق بذلك كل الارتفاق حتى أدت الحال به الى أن رســـم للمصير الى بغداد للقيام بتدريس المدرسة الميمونة النظامية بها ، فصار اليها واعجب الكل تدريسه ومناظرته ، وما لقي مثـل نفسه ، وصار بعد امامة خراسان أمام العراق . وعلت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الاكابر والامراء ودار الخلافة ، فانقلب الامر من وجه آخر ، وظهر عليه بعد مطالعة العلوم الدقيقة وممارسة الكتب المصنـفة فيها ، وسلك طريق الزهد والتأله ؛ وترك الحشمة وطـرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة ، فخرج عما كان فيه ، وقصد بيت الله وحج ، ثم دخل الشام وأقام في تلك الديار قريبـــا من عشر سنين) .

ويقول عبد الغافر أيضا : (وظهرت التصانيف وفشت الـكتب ولم تبدر في أيامه مناقضة لما كان فيه ولا اعتراض لاحد على أمره حتى انتهت نوبة الوزارة الى الاجل فخر الملك جمال الشهداء ... وقــد سمع وتحقق بمكان الغزالي ودرجته وكمال فضله وحالته وصفاءعقيدته ومعاشرته ، فتبرك به وحضره وســـمع كلامه فاستدعى منه ألا يبقى أنفاسه وفوائده عقيمة لا استفادة منها ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الالحاح وشدد في الاقتراح ... واشير عليـــه بالتدريس في المدرسة الميمونة النظامية فلم يجد بدا من الاذعان للولاة ، ونوى باظهار ما اشتغل به هداية السراة وافادة القاصدين دون الرجوع الى ما تخلى عنه من طلب الجاه ومماراة الاقران ومكاثرة المعاندين ، وكم قرع عصــــاه بالخلاف والوقوع فيه والطعن فيما يذره ويأتيه ، والسعاية به والتشنيع عليه ، فما تأثر به ولا اشتغل بجواب الطاعنين ، ولا أظهر استيحاشـــا بغميزة المخلطين) .

ثم قال عبد الغافر : (ثم سألناه عن كيفية رغبته في الخروج من بيته والرجوع الى ما دعى اليه من أمر نيسابور ؟ فقال معتـــذرا عنه :

ما كنت أجوز فى دينى أن أقف عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالافادة ، وقد حق على أن أبوح بالحق وأنطق به وادعو اليــــه . وكان صادقا فى ذلك ، ثم ترك ذلك قبل أن يترك ، وعاد الى بيته واتخـــــذ فى جواره مدرسة لطلبة العلم ، وخانقاه للصوفية ... الى ان أصابه عين الزمـان ، وضنت به الايام على أهل عصره ، فنقله الى كريم جواره بعد مقاســـاة أنواع من التقصد والمناواة من الخصوم والســــعى به الى الملوك ، وكفاه الله وحفظه وصانه عن ان تنوشه أيدى النـــكبات أو ينهتك ستر دينه بشىء من الزلات) .

هذا كلام صريح واضح يتحدث به الى التاريخ رجل عاصر الغزالى ، بل شاركه الدراسة على أستاذ عصره ، وامام دهره أبى المعالى عبدالملك الجوينى أمام الحرمين بل ان عبد الغافر يصرح بأنه كان يشك فى صدق اتجاه الغزالى الى الزهد والتجرد ، فيقول : (ولقد زرته مرارا وما كنت احدث فى نفسى ما عهدته فى سالف الزمان عليه من الذعارة والنظر اليه بعين الازدراء والاستخفاف به كبرا وخيلاء واغترارا بمـــا رزقه الله من البسطة فى النطق والخاطر والعبارة وطلب الجاه والعلو فى المنزلة انه صار على الضد ، وتصفى من تلك الكدورات ، وكنت اظن انه متلفـــع بجلباب التكلف بما صار اليه ، فتحققت بعد التروى والتنقير ان الامر على خلاف المظنون ، وان الرجل افاق بعد الجنون .

وحكى لنا فى ليال كيفية أحواله من ابتداء ما ظهر له من سلوك طريق التاله وغلبت الحال عليه بعد تبحره فى العلوم واستطالته عـــلى الكل بكلامه والاستعداد الذى خصه الله به فى تحصـــيل انواع العلوم وتمكنه من البحث والنظر حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم العرية عـــن المعاملة وتفكر فى العاقبة وما يجدى وما ينفع فى الآخرة ، فابتدأ بصحبة الفارمدى وأخذ عنه استفتاح الطريقة وامتثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والامعان فى النوافل واستدامة الاذكار والجهد والاجتهاد طلبا للنجاة الى أن جاز تلك العقبات وتكلف تلك المشـــقات وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده .

ثم حكى لنا أنه راجع العلوم وخاصة فى الفنـــون ، وعاود الجـــد والاجتهاد فى كتب العلوم الدقيقة واقتفى تأويلها حتى انفتح له أبوابها وبقى مدة فى الوقائع وتكافؤ الادلة واطراف المسائل .

ثم انه حكى انه فتح عليه باب من الخوف بحيث شغله عن كل شىء وحمله على الاعراض عما سواه حتى سهل ذلك ، وهكذا ، وهكذا الى ان ارتاض كل الرياضة ، وظهرت له الحقائق وصار ما كنا نظن به تمويهـــا وتخلقا طبعا وتحققا ، وان ذلك اثر السعادة المقدرة له من الله .

فعبد الغافر المتحدث عن الغزالي ثقة صدوق ، يتحدث عن مشاهدة لانه زميل معاصر مشارك للغزالي في طلب العلم والتلمذة على أستاذهما امام الحرمين ، فهو قرين عارف خبير بأحوال مجتمعه ، وقد شاهد الاحداث تجرى من حوله ، والوقائع تمر بين يديه ، هنا وهناك ؛ والغزالي يخوض لججها شجاعا جريئا ، مكافحا ؛ يقتحم عليها مخاطرها ؛ ويهجم عليها في غمراتها ، مقداما ؛ وثوقا بنفسه معجبا بقوة ذكائه ؛ ورجاحة عقله؛ وسعة علمه ، وقوته على أقرانه وفحول أشياخه .

وقد شافهه عبد الغافر ليسمع منه سماع الناقد الحاذق المستبصر حكاية حاله ، ليستشف من خبيئات نفسه ما عسى أن يكون كامنا وراء منطق الاحداث من حقائق في حياة هذا الزميل الذي تقلبت به الاحوال من طرف الى طرف ، قد تكون خافية عنه ، فشهادة عبد الغافر شهادة زميل لا يغلبه حسن الظن في صاحبه والاعجاب به ، فهي شهادة صدق لا يأتيها الريب من بين يديها ولا من خلفها .

فالغزالي كان عبقريا مكافحا ، يخوض غمرات الحياة جسورا غير هياب ولا حذر ، وهذا الكفاح هو الظاهرة القوية الغالبة على عنونة حياته ، فهو منذ رحل من بلده « طوس » الى مجلس استاذه امام الحرمين في ريعان الصبا وغضارة الشباب أخذ يلتهم بعقله العبقري فاعتد هذا الامام الذي تفرد بامامة عصره من العلوم والمعارف التي قضى في تحصيلها ودرسها دهره حتى استقامت له قناتها وصار فيها المشار اليه .

فلم تضلع منها الغزالي وارتوى ، وامتلأ عقله الواعي بما حصل وجمع ، أخذ وهو — بعد — لم يستتم عذاره ، ولم يطر شاربه يقيد ويؤلف ، ويكتب ويصنف ، وينقد ويبحث ويجادل ويناضل ؛ وعقد لنفسه حلقة درس يحضرها للافادة منه أقرانه الذين رغبوا اليه اذ أنسوا منه قوة الفهم وسعة التحصيل أن يستعيدوا عليه بعض ما قرأوا على استاذه واستاذهم ليتثبتوا ويحققوا ويزدادوا علما ومعرفة .

وكان هذا التقدم من الغزالي بين يدي أستاذه لا يعجب امام الحرمين، وكان يزور عليه منه ، ولم يثنه ذلك عن التطلع الى الاستقلال في الجدل والبحث ، فانتهض لمناظرة خصوم الاسلام من المتفلسفة والرافضة والتعليمية القائلين بالامام المعصوم ، كما ناظر الخارجين على النصوص الدينية بالتأويل المتعسف من المعتزلة والخوارج ، وناهض الحرفيين الجامدين الواقفين مع ظواهر النصوص من المجسمة والمشبهة فقهرهم جميعا ، وعلا صوته على أصواتهم وأنكر على غلاة المتصوفة الجامحين مع الخيال من المعطلة القائلين بالوحدة بين الخالق والمخلوق ، ونقد الفقهاء

والمحدثين ، وعاب عليهم كثرة تفريعاتهم في جزئيات يتكثرون بها ولما تقع في الحياة ، نعى عليهم التعصب المذهبي ، وأخذ عليهم ركونهم الى ذوى السلطان من أهل الدنيا تطلعا لما في أيديهم من حطامها ، وشنع عليهم في سكوتهم عن القيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر خشية اغضاب أولئك الظلمة ، والدخول معهم في مظالم سلطانهم من التنظر على الاحباس وجباية الاوقاف ؛ والتطلع الى مناصب القضاء والولايات ، والوصول اليها بالرشا والهبات ؛ وقد كان السلف الصالح يفر منهما فراره من الاوبئة الفاتكة ؛ وحمل على جميع هؤلاء بقلمه ولسانه حتى نفر العامة منهم ، وشكك الخاصة في أخلاقهم وعلومهم بل في دينهم .

وكان الى جانب ذلك يرى أمام عينيه دار الخلافة وعواصم الاسلام تموج بالمنكرات والمظالم ويرى عرى الدين تنحل فيها عروة اثر عروة على مرأى مسمع من الخلفاء والملوك والامراء والحاكمين باسم الاسلام ، ويرى العلماء على كثرتهم ، خاصتهم مشغولون بأنفسهم ؛ منطوون في المساجد والزوايا والمدارس ؛ لا يغيرون منكرا ؛ ولا يرفعون عن مظلوم ظلما ؛ ولا يدفعون باطلا ، ولا ينتصرون حقا ، وعامتهم منهمكون مع أهل الدنيا من الحاكمين والمحكومين ، يلهثون وراء دنياهم ، ولا ينيلونهم منها الا فضلات فتاتهم بعد أن يسلبوهم دينهم ؛ مما أرمض نفسه ؛ ودفعه الى أن يجهر بالحق في وجه الولاة والحاكمين وينعى على الفقهاء والمتكلمين والمحدثين موقفهم ، وذلك كله مع استيفاء واجبه العلمي مع العلماء والمفكرين في حلبات البحث والمناظرة .

كل ذلك أغرى به حاسديه من جميع الطوائف للوقوع فيه ، والتشنيع عليه ، والسعاية به الى ذوى السلطان في الدولة من الخلفاء والملوك والامراء والولاة وبطانات دار الخلافة الذين كانوا يرون حشمته تعلو فوق سلطانهم ، وسمو مكانته تسمو على مراتبهم ودرجاتهم بما منحه الله له في قلوب العامة وطلاب العلم من محبة وتعظيم .

وكان لهذا الاغراء أثره في أنفس ذوى السلطان خوفا على سلطانهم أن تطيح به صولة هذا الامام الذى ملك القلوب بعلمه وفضله وديانته واخلاصه ودفاعه عن حوزة الاسلام بلسانه وقلمه ، والذى غالب خصومه ـ وما كان أكثرهم ـ فقهرهم بحجته ، وذاع صيته في آفاق الاسلام شرقا وغربا ، وشهرت شخصيته في محافل العلم وميادين المعرفة ، الى جانب ما صادفه هذا الاغراء في صدد أولئك الحكم وبطاناتهم من هوى مكتوم في الميل الى الايقاع بهذا الامام أو زحزحته عن مكانه من الحياة ، أو اقصائه عن مواطن سلطانهم بقسره على العزلة عن حياة الناس .

وأبو حامد الغزالى رحمه الله رجل ذراك ، حصيف الذهن ، ألمعى الفراسة ، صادق الحدس ، لايخدع عن عقله ، نال ما نال من المكانة ، وهو فى فتوة الشباب : وريعان الفتوة ؛ ومن حوله أقرانه الذين لم يلحقوا بغباره ، وأمامه أشياخه الذين خلفهم وراءه ، ولم يدركوا شأوه ، وهو يعلم ان الحسد داء البشرية القديم ، ومرض المعاصرة المقيم ، وفى ذلك يقول أبو حامد فى مقدمة كتابه (فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة) .

اما بعد فانى رأيتك أيها الاخ المشفق والصديق المتعصب موغر الصدر ، منقسم الفكر لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة فى أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الاصحاب المتقدمين والمشايخ المتكلمين وان العدول عن مذهب الاشعرى ولو فى قيد شبر كفر ، ومباينته ولو فى شىء نزر ضلال وخسر ، فهون عليك أيها الاخ المشفق المتعصب على نفسك ، لا تضيق به صدرك وقل من غربك قليلا واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر او الضلال لا يعرف) .

وكان الغزالى قوة من العبقرية الثائرة ، يحمل بين جنبيه شحنة من خصائص الامتياز الانسانى فى عقله وروحه ، يزكيها الكفاح ، وينميها النضال .

فهو لم يكد يرى المدرسة النظامية ، مدرسته الاولى فى نيسابور تخلو من استاذه العظيم امام الحرمين الذى انتقل الى جوار ربه فى سنة ٤٧٨ هجرية — وعمر الغزالى يومئذ ثمانية وعشرون عاما — حتى استوحشت نفسه — فعزم على الرحيل ميمما شطر المعسكر حيث رحاب الوزير العالم الفاضل نظام الملك ، وزير الدولة السلجوقية ، ومؤسس المدارس النظامية فى نيسابور وبغداد وسواهما من حواضر الاسلام ، وهى أول مدارس فى تاريخ الاسلام بعد البيهقية — كان للعلماء وطلاب العلم فيها نظام استقرارى يفرغهم للبحث والدراسة .

وكان نظام الملك محببا للعلم والعلماء ، يميل الى التشبه بهم ، ويود لو أن التاريخ أدخله فى زمرتهم ، شغوفا بحسن الاحدوثة فى المعرفة ؛ متمسكا بمذهب أهل السنة ، عطوفا على الصوفية ، محسنا اليهم ، حفيظا على الديانة ؛ قواما بواجباته السياسية ، بذولا فى سبيل الخير ونشر المعرفة والعلم ، يحفل مجلسه بفحول العلماء من كل مذهب ، ودعاة الفرق وزعماء النحل للمناظرة والبحث .

وجد الغزالى فى محافل هذا الوزير العلمية فرصته الكبرى ، فاقتحمها

بشبابه جسورا على الفحول من المشيخة والكهول ، فصال وجال ، وناظر وجادل ؛ حتى علت حجته على سائر مناظريه فى كل مجال ، وظهر بجرأته، وشهر ببراعته ؛ وقهر خصومه بمناظرته ، وانفرد بامامة خراسان ، ودان له فيها كل ذى بيان بالقلم واللسان ، وجد به الجد ، وسمت نفسه الى آفاق ارفع ، ورحاب أوسع ، وأى ميدان املأ بذخائر العلم والمعرفة من محط رحال الغطارفة ، دار الخلافة بغداد ؛ فهى اذ ذاك موئل الفصحى وملاذ الاسلام ، وملجأ الانام ؛ ومطمح كل عبقرى فى فنون العرفان ٠

لقد أقبل نظام الملك على الغزالى لما رآه فيــه من مخايل العبقرية ، ومؤذنات الامامة ومعالم الفضل والديانة اقبالا ايقظ فى نفس الغزالى دواعى المجد ، ورشحه كبار الآمال وحرك منه رغائبه فى غزو محافل بغداد عاصمة العراق بعد امامة خراسان ، وبهما تتم امامة دنيا الناس فى ذلك الزمن

رأى نظام الملك أن مدرسته النظامية فى بغداد فى حاجة الى عبقرية تضفى عليها من جلال التقديس التاريخى وقداسة المعرفة ما أضفى استاذ الاستاذين امام الحرمين من قبل على نظامية نيسابور ، فرسم للغزالى ـ وقد وجد فيه طلبته ـ بالتوجيه اليها ليلى رياسة تدريسها واستاذية روادها من أعلام العلماء ومتكملى طلاب العلم من ذوى الاختصاص الذهنى والامتياز الفكرى

استجاب الغزالى ونهض حازما عزائمه الى حاضرة الدنيا وجامعة المعارف « بغداد » والقى بها عصا الترحال ، وتولى مهام منصبه ، وقام بالتدريس والمناظرة ، وأعجب به جهابذة الفكر النحارير أعجابا فرقته نوازع المعجبين ومشاربهم ، بين الاعجاب القائم على دعائم تقدير المحبة والغبطة بامام كان هؤلاء المعجبون يفقدونه حسا مشهودا فى زعامتهم ويتراءونه فى احلامهم املا طائرا فى آفاق الاسلام ، حتى تمثلوه بينهم حقيقة وجودية تقودهم من نصر الى نصر ، وبين الاعجاب القائم على التقدير لقوة فكرية قاهرة افتقدها هؤلاء المعجبون فى زعامة مناهضيهم حتى غافصتهم وهم فى نشوة الاعجاب بانفسهم فادهشتهم وأطاحت بأباطيلهم ، وأفاقوا من غشيتهم على صليل سلاح من الحجة الدامغة لم يألفوه فى معاركهم الجدلية مع خصومهم ، وهم

ينظرون الى هذه القوة فى اهاب هــذا الامام وكأنما فى صــدورهم حسك السعدان ، أو ضرام النيران ٠ ولقد صدق عصرية المؤرخ الثقة عبد الغافر الفارسي فى حديثه عنه يومئذ اذ يقول : (وما لقى مثل نفسه ، وصار بعد امامة خراسان امام العراق) ٠

هذ الوضع التاريخى الذى وضعت فيه شخصية الغــزالى لا ينبغى

الاعتماد عليه وحده في تحديد معالم تلك الشخصية ، ووضعها في مكانها من الحياة الفكرية .

ومفتاح شخصية الغزالي المفكر ماثل — في رأينا — في تتبع أطوار حياته ، ودراستها مرحلة مرحلة ، دراسة مرتبة ؛ تستهدف في منهجها معرفة ما كان عليه من السلوك ، وما أنتجه في كل طور ومرحلة من أطوار ومراحل تلك الحياة من الافكار والاعمال ، ثم الكشف عن صلة كل مرحلة وطور بما سبقه من أطوار ومراحل ، لان الغزالي كان في حياته متوثبا سريع « التطور » كثير الاطوار ، متحفز النفس ، فوار العقل ، مستوفز الشعور ، ثم عرفت حياته الهدوء والاستقرار : فهو اذا هدأ بجسمه واعتزل الناس والحياة في بعض أطوار حياته ، فان روحه كانت في هذه العزلة المغلفة بالهدوء ، متوثبة ، وقلبه كان فيها يغلي غليان القدور تشتعل من تحتها النيران ؛ تفور نفسه ؛ ويتوثب عقله بحثا وراء الحقيقة التي كانت تتراءى له في كل طور من أطوار حياته في أطار من صنع هذا الطور الفكري والاجتماعي .

وقد تراءت له الحقيقة بظلالها الباهتة في طور تصوفه البدائي التقليدي وهو في طور الطفولية والصبا على يد شيخه ومربيه الاول ، ذلك الصوفي صديق ابيه ، ووصيه عليه فعلق منهما بقلبه ووجد أنه ما يعلق بالنفس المرهفة من آثار الرؤى الصادقة والاحلام المشرقة .

ثم تراءت له في دراسة الفقه على مذهب الامام الشافعي الذي درس اوائله في صباه ببلده «طوس» على شيخه ابي حامد الرذكاني ، قال تاريخ الدين السبكي في الطبقات : وهذا الرذكاني أحد اشياخ الغزالي في الفقه تفقه عليه قبل رحلته الى امام الحرمين .

ثم رحل الغزالي لدراسة الفقه بأوسع مما وجده عند الرذكاني الى جرجان ، وعلق عن الامام ابي نصر الاسماعيلي (١) — كما يقول ابن السبكي في الطبقات — التعليقة ، ثم عاد الى بلده «طوس» يحفظ ما علق وكتب ، ومكث في حفظ ذلك ثلاث سنين كما يحكيه عن نفسه في رواية أسعد الميهني ، خشية ان يفقد علمه بفقد تعليقته كما وقع له في حادث قطع الطريق عليه وهو عائد من جرجان ، وهي حكاية مشهورة ، ملخصها أن العيارين قطاع الطريق سلبوه جميع ما كان معه ، قال الغزالي : فتبعتهم فالتفت الى مقدمهم ، وقال ارجع ويحك ، والا هلكت ؛ فقلت له : اسألك بالذي ترجو منه السلامة ان ترد علي تعليقتي فقط ، فما هي بشيء تنتفعون به ؛ فقال لي : وما هي تعليقتك ؟ فقلت : كتب في تلك المخلاه

(١) يظهر انه وقع التباس بين ابي نصر هذا وهو متوفى سنة ٤٠٥ هـ والغزالي ولد سنة ٤٥٠ هـ فغير معقول مشيخته للغزالي وبين ابي القاسم الاسماعيلي ، وهو من أسرة ابي نصر وكانت وفاته سنة ٤٧٧ هـ فمعقول أن يكون هذا هو شيخ الغزالي .

هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف تدعى انك عرفت علمها وقد اخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ثم امر بعض اصحابه فسلم الى المخلاه فقلت لنفسى : هذا مستنطق انطقه الله ليرشدنى فى امرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم اتجرد من علمى

وهذه الحكاية مرتبطة برحيل الغزالى من بلدة «طوس» الى جرجان بعد ان استوفى ما عند شيخه الرذكانى من الفقه ، وأراد ان يتسع فى دراسة الفقه بالاخذ عن الامام ابى نصر الاسماعيلى فقيه جرجان فى عصره ولنا فيها وقفة .

أولا : ان رحيل الغزالى من طوس الى جرجان فى مبدأ حياته لم يذكره عصريه عبد الغافر مع أنه أطال الرشاء فى ترجمة الغزالى وأبدى فيها واعاد .

ثانيا : هذا الرحيل أغفله ابن السبكى نفسه فى ترجمة أول شيخ للغزالى فى الفقه وهو ابوحامد الراذكانى ، وجعل التفقه عليه قبل رحلته الى امام الحرمين ولم يشر الى رحلته لجرجان .

ثالثا : الامام أبا نصر الاسماعيلى الذى تقول الرواية عنه ان الغزالى علق عنه تعليقته المذكورة فى الحكاية توفى — كما يقول ابن السبكى نفسه فى الطبقات — سنة خمس وأربعماية ،

والغزالى ولد فى سنة خمسين واربعماية ، فكيف أخذ عنه ؟

ولهذا نرى أن هذه الحكاية من تكثر الرواة ، وقبلها ابن السبكى تكثرا أيضا فى شأن الامام الغزالى ، الا أن يكون فى الأمر التباس فى تواريخ الرجال ، وهذا شيء لا يقوم عندنا الا على شك مبعثه حسن الظن فى أهل العلم ، وقد ذكرنا فى هامش ص ٣٩ ما يكشف هذا الالتباس .

وأيا كان الامر فان المحقق من التاريخ ان الامام الغزالى طلب أول ما طلب من العلم بعد مرحلة التربية الصوفية فى طفوليته ، علم الفقه فدرس منه فى صباه ما تهيأ له ، ثم رحل الى نيسابور ، وكانت احدى حواضر العلم والمعارف ، وفيها تتلمذ على مؤسس شخصيته العلمية ... الاستاذين الامام عبد الملك الجوينى امام الحرمين (١) ، وكان هذا الامام أحد العقول الاسلاميه الفذة فى عصره ، وكان قيم المذهبين ، مذهب الفقه

(١) توفى سنة ٤٧٨ هـ

على اصـــــول الامام الشافعى ، ومذهب الكلام والجدال على أصـــــول مذهب الامام الاشـــــعرى ، فوجد فيه الغزالى طلبته المرغوبة وضالته المنشودة ، فلازمه — وهو فى سن الشباب والفتاء — وجد واجتهد ونافس وزاحم حتى برع فى الفقه والخلاف والجدال ، وفاق اقرانه فى اصول الفقه والعقائد والمنطق ، وفى هذا الطور من حياته تصدى للمناظرة والجـــدل والرد على المخالفين من اساطين المعتزلة ، ودعاة التعليمية القائلين بالامام المعصوم ؛ وكان المجوبة فى فهم مذاهب مخالفيه وآرائهم ، يقررهـــا قبل الرد عليها باقوى واوضح مما يقررها أصحابها حتى عيب عليه ذلك وقيل له : انك تقرر شبه خصومك ومذاهبهم بما لم يســـتطيعوه فكان يعتذر عن صنيعه هذا بقوله : انى قصرت فى تقرير شـــبههم لخشيتى ان ارمى بعدم فهم كلامهم .

وذاع صيته فى هذا الطور من حياته ، وتكالب عليه أرباب النحل، وتالب عليه زعماء الفرق ، ورموه عن قوس واحدة ، فرسخ لهم طوده ، فلم يفلوا له قناة ، وتكسرت على صخرة عزائمـــه سهامهم فلم يثلموا له صفاة ، وقد فتح عليه الجدل والخوض فى علم الكلام أبوابا من مسائل الفلسفة الالهية فى العقائد ، فدرسها على اساتذة امام الحرمين مع المنطق والحكمة حتى أحكم ذلك كله — كمـــا يقول ابن السبكى — ودرســـها استقلالا من غير معلم او استاذ موفق — كما يقول الغزالى عن نفسه (ثم انى ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة ، وعلمت يقينا انه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى اعلمهم فى اصل العلم ثم يزيد عليهم ، ويجاوز درجته فيطلع على مالم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغـــايلة ، فاذ ذاك يمكن ان يكون ما يدعيه من فساده حقا ، ولم ار احدا من علماء الاســـلام صرف عنايته وهمته الى ذلك ولم يكن فى كتب المتكلمين من كلامهم حيث اشتغلوا بالرد عليهم الا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد ، لا يظن الاغترار بها بغافل عامى ، فضلا عمن يدعى دقائق العلوم فعلمت ان رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمى فى عماية ، فشمرت عن ساق الجد فى تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة باســـتاذ ومعـــلم واقبلت على ذلك فى أوقات فراغى من التدريس والتصنيف فى العلوم الشرعية ... فاطلعنى الله سبحانه بمجرد المطالعة فى هذه الاوقات المختلسة على منتهى علومهم فى اقل من سنتين ، ثم لم أزل أواظب عـــلى التفكير فيه بعد فهمه قريبا من سنة أعاوده واتفقد غوائله واغواره حتى اطلعت عـــلى ما فيه من خـــداع وتلبيس وتحقيق وتخييل اطلاعا لم اشك فيه) (١)

(١) المنقذ من الضلال

والغزالي رحمه الله يصف نفسه في هذا الطور — وهو اهم اطوار حياته ، وأعظمها ثورة مع نفسه ومع الحياة الفكرية عامة — فيقول (ولم ازل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد اناف السن على الخمسين اقتحم لجة هذا البحر العميق واخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة واتهجم على كل مشكلة واقتحم كل ورطة واتفحص عقيدة كل فرقة واستكشف أسرار مذهب كل طائفة . لاميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا الا وأحب أن اطلع على بطانته ولاظاهريا الا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ولا فلسفيا الا واقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا الا واحرص على العثور على سر صفوته ولا متعبدا الا واترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا الا واتجسس وراءه للتنبيه لاسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الامور دأبي وديدني من أول امري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا .

وهذا النص واضح جدا في ان الغزالي يصرح بانه انحلت عنه رابطة التقليد ودخل في زمرة الائمة المجتهدين من احرار الفكر في اوائل سن الشباب ، لانها هي السن التي تكون قريبة عهد بسنا الصبا ، وتلك هي سنة أيام تلمذته لامام الحرمين ، وهي مدة لاتقل في التقدير التقريبي المبني على تتبع أطوار حياته عن ثماني سنوات ، وكانت اخصب ايامه

أى تقليد تحرر منه الغزالى

وأى علم حل عنه رابطة ذلك التقليد

وهنا نتساءل ، أى تقليد هذا يقول الغزالى انه قد انحلت عنه رابطته نتيجة لتعطشه الى ادراك الحقائق ، واقتحامه لجة بحر العلوم والمعارف اقتحام الجرىء الجسور ، وخوضه غمرة الفكر ، وتوغله فى خضم كل مشكلة ، وتهجمه على كل معضلة ؟ اهو تقليد عام فى جميع العلوم والمعارف والفنون التى عرفها عصره ؟

هو تقليد خاص بأصول الدين وعقائده ؟

ونتسائل مرة أخرى ، أى علم هو الذى استبحر فيه الغزالى ، وعرف مداخله ومخارجه واستوعب ظواهره ، وكشف الغطاء عن بواطنه ، وسهر فى قضاياه ومسائله حتى كانت كأنها من بنات أفكاره وصنعه قريحته واصبح فيها الامام الذى لايرجع الى أمام ؟

والذى يؤخذ من كلام الغزالى أنه يقصد الى التقليد فى العقائد ؟ بدليل قوله فى النص السابق (وانكسرت على العقائد الموروثة) وبدليل قوله فى آخر كتابه « ميزان العمل » (تحت عنوان بيان معنى المذهب واختلاف الناس فيه : لعلك تقول : كلامك فى هذا الكتاب انقسم الى ما يطابق مذهب الصوفية والى ما يطابق مذهب الاشعريه وبعض المتكلمين ولايفهم الكلام الا على مذهب واحد ؟ فما الحق من هذه المذاهب ؟ .... الى ان يقول فجانب الالتفات الى المذاهب ، واطلب الحق بطريق النظر لتكون صاحب مذهب)

ومن ثم يظهر انه لا يدخل التقليد فى فروع الفقة فى قصده ، والا تكون انحلت عنه رابطة التقليد فيها وهو فى مؤلفاته الفقهية كالبسيط والوسيط والوجيز يقرر مذهب الشافعى وان كانت له اجتهادات فى بعض فروع الفقه والمسائل العارضة فهى لاتخرجه عن التقليد فى دائرة اصول امامه الشافعى رضى الله عنه ، فهو بحسب اصطلاح الفقهاء مجتهد مذهب ، بلغ درجة الترجيح بين أقوال شيوخ المذهب ، وقد يجرى الغزالى على سجيته فى التحرر الفكرى فيرجح مذهب غير الشافعى عليه كما صنع فى مسائل المياه وازالة النجاسة حيث رجح مذهب مالك فيها وارتضاه والغزالى

فى كتاب (جواهر القرآن) يهون من شأن الخلاف فى علم الفقه ، ويراه قريبا ويرى أن الخطأ فيه غير بعيد من الصواب ، ويتأسف نادما على أنه ضيع شطرا صالحا من عمره فى تصنيف الخلاف منه ، مع اعترافه بأن الحاجة اليه تعم لتعلقه بصلاح الدنيا أولا ثم بصلاح الآخرة ، ولذلك رزق هذا العلم مزيد بحث واطناب وعظم فيه الجاه والحشمة مما وفر الدواعى على الافراط فى تفريعه وتشعيبه ويرى ان ذلك مخالف لطريقة الاولين من السلف الصالح الذى كانوا لايستغرقون جملة العمر فيه ، ثم ان الغزالى يعترف بأنه لم يكن ممن عنوا بالحديث والخلافيات فى مسائل الفروع ، وهما من أوائل مايعتمد عليه المجتهد فى الفروع الفقهية ، وموضوعات التعبد والمعاملات بين الناس ، وقد يكون من أسباب ذلك أن عصر الغزالى كان عصر جدل فى العقيدة ، وكان الفقه التشريعى فيه قد استقرت أصوله وكثرت مؤلفاته وتعددت تفريعاته .

وانحلال رابطة التقليد فى العقائد وهو الذى يقصده الغزالى واجب كل من تأهل للنظر فى الادلة ، فهل يقصد أبو حامد بذلك منهجه فى علم الكلام ؟ انه يأبى على البحث ان يؤمن بأن علم الكلام أخرجه عن التقليد الى الاجتهاد لانه يقول (ثم انى ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المتقدمين المحققين منهم وصنفت فيه ما أردت ان أصنف ، فصادفته علما وافيابمقصوده ، غير واف بمقصودى ، وانما مقصوده حفظ عقائد أهل السنة على أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة ، ولكنهم ـ أى المتكلمين ـ اعتمدوا فى ذلك على مقدمـــات تسلموها من خصومهم اضطرهم الى تسليمها اما التقليد او اجماع الامة أو مجرد القبول من القرآن والاخبار ، .... فلم يكن الكلام فى حقى كافيا ولا لدائى الذى كنت اشكوه شافيا) ويقول فى كتاب « جواهر القرآن »ومن قسم محاجة الكفار ومجادلتهم يتشعب علم الكلام ، المقصود لرد الضلالات والبدع وازالة الشبهات ، ويتكفل به المتكلمون ، وهذا العلم شرحناه على طبقتين: سمينا الطبقة القريبة منهما الرسالة القدســـية والطبقة التى فوقها « الاقتصاد فى الاعتقاد » ومقصود هـــذا العلم حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة ولايكون هذا العلم مليا بكشف الحقائق .

فعلم الكلام اذن لم يكن هو الذى حل رابطة التقليد فى العقائد عن الامام الغزالى على اننا لاندرى كيف أن مجرد القبول من القرآن أو الاخبار المقطوع بها عند النبى صلى الله عليه وسلم لا يحل رابطة التقليد عمن يفهم المقطوع بها عن النبى صلى الله عليه وسلم لايحل رابطة التقليد عمن يفهم طرائق الاستدلال بها ؟

كان الغزالى لايرى ان الادلة النقلية اذا كانت قطعية النص والدلالة تكفى فى حل رابطة التقليد وانكسار العقائد الموروثة ، وما موقفه من

جمهور الصحابة وسائر الائمة قبل ظهور طرائق الاستدلال الكلامية ؟

واذا كان علم الكلام بطرائقه الاستدلالية ، ومجرد القبول من القرآن والسنة الثابتة لم يحلا رابطة التقليد عن الامام الغزالي فأى علم وراءهما يمكن أن يسند اليه حلها أهو علم الفلسفة ؟ وقد درسه الغزالي بعد فراغه من علم الكلام الذى لم يكن راضيا بمقصوده . وكانت دراسته للفلسفة — كما — يقول — من قراءة كتبها دون موقف ولا معلم فى أوقات فراغه من دروسه وتصنيفه ، ويقول انه حصلها حتى بلغ فيها أنه فاق أعلم علمائها فى سنتين وردد النظر بعد فهمها قريبا من سنة حتى اطلع على مافيها من خداع وتلبيس وتحقيق وتخييل اطلاعا لم يشك فيه .

وهنا نتساءل اية فلسفة هى التى يقصدها الغزالى بهذا الكلام الذى تبجح به فى كتابه المنقذ من الضلال ؟ أهى الفلسفة التى يعرفها الفلاسفة القدامى من الاوائل بجميع أبوابها وفروعها ؟ ويعرفها الفلاسفة الذين نشأوا فى ظل الاسلام ، الذين رد عليهم وكفرهم كابن سينا والفارابى والكندى وأمثالهم ممن تقدمه زمانهم .

ان الغزالى يجيب عن ذلك فى بساطة ونقه بالغة فيقول (فاطلعنى الله سبحانه بمجرد المطالعة فى هذه الاوقات المختلسة على منتهى علومهم ...) ثم أخذ يعدد طوائفهم فـــذكر (الدهريين) و (الطبعيين) و (الالهيين) وذكر أن علومهم بالنسبة الى غرضه تنقسم الى رياضيـــة ، ومنطقية وطبيعية والهية ، وسياسية ، وخلقية ثم تكلم على كل قسم ادخل تحته فنونا .

ونحن نقف فلا نستطيع الحكم على أبى حامد فى هذا ، ولا الحكم له ، وان كنا نؤمن انه لا حرج على فضل الله ، مع أنه ذكر فى مقدمات التهافت ان آراء الفلاسفة منتشرة وطرقهم متباعدة ، ومع ان مؤرخيه من أمثال ابن السبكى وعبد العافر ذكروا فيما ذكروه من الفنون التى أحكمها على استاذه امام الحرمين العلوم الدقيقة والفلسفة .

ومن ثم فاننا نظن ظنا قويا فى توجيه كلام أبى حامد واطلاعه على الفلسفة فى مدى — سنتين من مجرد قراءة كتبها دون معلم واستاذ ، ان أبا حامد أخذ عن أستاذه امام الحرمين مبادىء الفلسفة ممزوجة فى علم الكلام والجدل ، فرسخ منها فى ذهنه كثير من أصولها بمصطلحاتها ولا مستغربا بمطالعة كتبها على ضوء ما أخذه عن استاذه أمام الحرمين ، وقد كان له فيها انتقاد المعلى غير انه ماكان يظهر بها كما يدل على ذلك كلامه فى كتاب البرهان الذى اشتمل على معضلات فلسفية لاتزال مغطاة على

العقول ويدل لذلك كلام عبد الغافر حيث ذكر الفلسفة في ضمن العلوم التى برع فيها الغزالى على يد استاذه امام الحرمين ، كما يدل على تبحر أمام الحرمين فى الفلسفة وان لم يشهر بها قوله فيما يرويه ابن السبكى فى الطبقات عن ابن السمعانى فى الذيل انه قرأ بخط ـ الحافظ بن جعفر الهمدانى ، قال ، سمعت أبا المعالى الجوينى يقول : لقد قرأت خمسين ألفا فى خمسين ألفا ثم خليت أهل الاسلام بأسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة وركبت البحر الخضم وغصت فى الذى نهى عنه أهل الاسلام منها ، كل ذلك فى طلب الحق وكنت أهرب من التقليد والآن قد رجعت عن الكل الى كلمة الحق ، عليكم بدين العجائز فان لم يدركنى الحق بلطف بره فاموت على دين العجائز وتختم عاقبة أمرى عند الرحيل على نزهة أهل الحق وكلمة الاخلاص ، لا اله الا الله فالويل لابن الجوينى ٠

قال ابن السبكى : قلت ظاهر هذه الحكاية عند من لاتحقيق عنده البشاعة وانه خلى الاسلام وأهله ، وليس هذا معناها ، بل مراده انه أنزل المذاهب كلها فى منزلة النظر والاعتبار غير متعصب لواحد منها ، بحيث لايكون عنده ميل يقوده الى مذهب معين من غير برهان ثم توضح له الحق وانه الاسلام فكان على هذه الملة عن اجتهاد وبصيرة لا عن تقليد ، ولا يخفى ان هذا مقام عظيم لا يتهيأ الا لمثل هذا الامام ، وليس يسمح به لكل احد ، فان غائلته تخشى الا على من برز فى العلوم وبلغ فى صحة الذهن مبلغ هذا الرجل العظيم ٠

ونتبع هذا الظن بظن آخر وهو ان الغزالى قرأ من الفلسفة مختصرات استوعب اكثر ابوابها وتوسع فى باب الالهيات لصلته القوية بعلم الكلام وأنه اعتمد على كتب ابن سينا والفارابى اللذين اعتبرهما أقوم الفلاسفة بمذهب ارسطو ، وعبارة ابن سينا قريبة الفهم اكثر من عبارة غـيره والناظر فى كتابه الاشارات يجد كثيرا من ألفاظه وعباراته ممزوجا فى كتب الغزالى ، ولا سيما كلامه فى اشاراته عن العارفين ومقاماتهم والزاهدين ودرجاتهم وقد يكون الغزالى قاصدا هذا النحو فى رده على اعتراض من اعترض عليه فقال : (ولقد اعترض على بعض الكلمـات المبثوثة فى تصانيفنا فى أسرار علوم الدين طائفة من الذين لم تستحكم فى العلوم سرائرهم ، ولم تنفتح الى أقصى غايات المذاهب ببصائرهم ، وزعم ان تلك الكلمات من كلمات الاوائل مع أن بعضها من مولدات الخاطر ، ولا يبعد ان يقع الحافر على الحافر ، وبعضها يوجد فى كتب الشريعة واكثرها موجود معناها فى كتب الصوفية ، وهب انها لم توجد الا فى كتبهم فاذا كان ذلك كلاما معقولا فى نفسه مؤيدا بالبرهان ، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة فلا ينبغى أن يهجر وينكر ؟

بهذا الظن يمكن حل عقدة التوقف في قبول دعوى الامام الغزالي في اطلاعه على الفلسفة ودراستها دون استاذ ومعلم حتى كان أعلم من أعلمهم .

ولكن هل هي الفلسفة التي حلت عنه رابطة التقليد بعد اذ عجز عن ذلك علم الكلام ؟

ان الامام الغزالي لم يلق في الفلسفة ولا في الفلاسفة بل أنه صرح بانه درس – الفلسفة ليرد عليها ، ويقول في التهافت (انه ابتداء تحرير هذا الكتاب ردا على الفلاسفة القدماء مبينا تهافت عقيدتهم وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالالهيات وكاشفا عن غوائل مذهبهم وعوراته التي هي على التحقيق مضاحك العقلاء) .

واذا كان هذا الكلام صريحا في القدماء من امثال ارسطو واستاذه افلاطون ، فان الغزالي لم يحجم عن التصريح في كتابه المنقذ عن ادخال من تبع القدماء من متفلسفة الاسلام كابن سينا والفارابي معهم في التفكير بما كفرهم به .

فعلم الفلسفة اذن ليس هو الذي حل رابطة التقليد عن الغزالي في قرب عهد بسن الصبا .

واذا كان علم الكلام والفلسفة عجزا عن حل رابطة التقليد عن الغزالي فما الذي حلها عنه ؟ أهو التصوف الذي انتهى اليه الغزالي ، ويقول عنه (ثم لما فرغت من هذه العلوم اقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت ان طريقهم انما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى) .

ويقول (أني علمت يقينا ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وان سيرتهم احسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الاخلاق ، بل لو جمعوا عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلا) .

والصوفية في نظر الغزالي هم أهل الكشف اللدني الذي هو (نور يقذفه الله تعالى في الصدر) دون نظر في دليل أو ترتيب كلام ، كيف يحل هذا رابطة التقليد في العقائد ؟ قد يكون مسلما بالنسبة للشخص في ذاته اذا تحقق له مايقوله الصوفيون من الكشف الذي ينتهي كما يقول الغزالي الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول وكل ذلك خطأ)لكن الحالة اذا سلمت الى اربابها وحلت عنهم

رابطة التقليد في ذواتهم فقط ، فهي ليست حالة العلماء المجتهدين في تأسيس عقائدهم هم على النظر والبرهان .

لكن الغزالي رحمه الله يحل هذا الاشـــكال بما يقوله في كتاب (ميزان العمل) تحت عنوان (المذهب الثالث) ما يعتقده الرجل سرا بينه وبين الله عز وجل لايطلع عليه غير الله تعالى ولايذكره الا مع من هو شريكه في الاطلاع على ما أطلع أو بلغ رتبة يقبل الاطلاع عليه ويفهمه) .

ومعنى ذلك أن الانسان يعيش مع الناس بمذهب وعقيدة ، ومع نفسه فيما بينه وبين الله بمذهب وعقيدة ولا ندرى ماهذا ؟ الا ان يكون شيئا جاء من قبيل خبيئات الفلسفة أو مذهب التعليمية أصحاب الامام المعصوم والسر المكتوم ، والامام الغزالي يرد عليهما ويزيف مذهبهما .

متى تصوف الغزالي ؟؟

واذا قبلنا ان التصوف يمكن أن يحل رابطة التقليد في خاصـــة الانسان وداخل نفسه وهو الذى حل رابطة التقليد عن الغزالي ، فمتى تصوف الغزالي تصوفا انتهى به الى الكشـــف عن حقائق الغيب فيكون الايمان مع هذا الكشف ايمان مشاهدة وحضور وهذا لاتقليد فيه ؟ هل تصوف في سن قريبة عهد بسن الصبا التى يقول انه انحلت عنه فيهـا رابطة التقليد ؟

ليس بين باحثى الغزالي من يقول انه تصوف مبكرا ، سوى ما هدنا اليه النظر من بداية حياته على يد شيخه الصوفي الذى وصاه أبوه عليه وعلى أخيه ، وقد استروحنا أن تربية الغزالي بدأت صوفية غير ان هـذه الحالة لم تتصل ، لان طلبه العلم وخوضه بحار العلوم واشتغاله بنضال الفرق المخالفة قطعها ، فبقى مابقى منها راسبا في قاع نفسه حتى حركته النهاية « الصوفية » العظمى التى انتهى اليها الغزالي في آخر حياته بعلمه وعقله وقلبه .

على أن بعض الروايات يقول : أن الغزالي كان ينكر على الصوفية أحوالهم حتى هداه الله لطريقتهـــم على شيخه النساج . روى الزبيدى في شرح الاحياء عن قطب الدين .

محمد بن الاردبيلى قال : قال حجة الاسلام : كنت في بداية امرى منكرا لاحوال الصالحين ومقامات العارفين حتى صحبت شيخى يوســـف النساج بطوس ، فلم يزل يصقلنى بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات ، فرأيت الله في المنام ، فقال لى : يا أبا حامد ، قلت : أن الشيطان يكلمنى

قال : لا ، بل أنا الله المحيط بجهاتك الست ، ثم قال : يأبا حامد ذر مساطرك وأصحب أقواما جعلتهم في ارضي محل نظري ، وهم الذين باعوا الدارين بحبي ، فقلت : بعزتك الا أذقتني برد حسن الظن بهم ، فقال : قد فعلت ، والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا ، فاخرج منها مختارا قبل ان تخرج منها صاغرا ، فقد افضت عليك أنوارا من جوار قدسي فقم وقل ، فاستيقظت فرحا مسرورا وجئت الى شيخي يوسف النساج فقصصت عليه المنام فتبسم ، قال : يا أباحامد ، هذه الواحنا في البداية محوناها بأرجلنا ، بل ان صحبتني سيكحل بصر بصيرتك باثمد التأييد حتى ترى العرش ومن حوله ، ثم لاترضى بذلك حتى تشاهد مالاتدركه الابصار ، فتصفو من كدر طبيعتك وترقى على طور عقلك ، وتسمع الخطاب من الله تعالى كموسى (اني انا الله رب العالمين) .

هذه رواية نذكرها لانعرضها على العقل ليحكم لها أو عليها ، لان أحوال الصوفية ومدركاتهم فوق طور العقل ، كما يقولون عن أنفسهم وانما ذكرناها لنبين اننا نقف منها موقفه الشك ، لما اشتملت عليه من انكار أبي حامد لاحوال الصالحين ومقامات العارفين ولم نطلع على شيء من الانكار في كتب الغزالي التي قرأناها ، وانما كان ينكر على الحلوليين ممن يدعون التصوف وغيرهم من فرق الضلال ، وظل على ذلك الى آخر حياته ينكر عليهم ويجاهدهم بحجة العقل وقواعد العلم والشرع ، أما صالحو القوم وعارفوهم فكأن محابهم منذ رضع البانهم الى ان فطم على ايديهم .

وفي هذه الحكاية أيضا ما يؤيد نظرية التصوف في قول رجاله : أن العلم حجاب ، فقد قيل لابي حامد في هذه الحكاية ذر مساطرك وأصحب اقواما في أرضي جعلتهم محل نظري .

وفيها ان الغزالي تصوف بعد ان طوف الافاق وبحث ودرس وجادل ، ثم عاد الى بلده طوس ليستقر فيها وهناك اجتمع بالنساج وأخذ عليه الطريق فلم يكن التصوف مما عناه في حل رابطة التقليد .

على أن هناك رواية يرويها الشعراني نقلا عن محيي الدين بن عربي تفيد ان تصوف الغزالي لم يخلصه تماما من حجاب العلم ، قال ابن عربي « وكان الغزالي يقول : لما أردت ان انخرط في سلك القوم وأشرب من شرابهم نظرت الى نفسي فرأيت كثرة حجبها ولم يكن لمشيخ اذ ذاك - فدخلت الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوما فانقدح لي من العلم ما لم يكن عندي ، أصفى وأدق مما كنت اعرفه ، فنظرت فيه فاذا فيه قوة فقهية ، فرجعت الى الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة اربعين يوما فانقدح لي علم آخر ، أرق وأصفى مما حصل عندي أولا ، ففرحت

به ، ثم نظرت فيه ، فاذا فيه قوة نظرية فرجعت الى الخلوة ثالثا اربعين يوما فانقدح لي علم آخر هو أرق ـ واصفى ، فنظرت فيه فاذا فيه قـوة ممزوجة بعلم علم ، ولم الحق بأهل العلوم اللدنية فعلمت ان الكتابة على المحو ليست كالكتابة على الصفاء الاول والطهارة الاولى ، ولم اتميز عن النظار الا ببعض أمور . قال ابن عربي : رحم الله أبا حـامد ماكان اكثر انصافه وتحرزه من الدعوى).

وهذه الرواية أظهر في أن العلم حجاب عن الفتوحات اللدنية ، وانما يكون الفتح عن طريق العلم في باب العلم ، وهي تدل على أن مقام الغزالي في التصوف محدود ، وأنه لو تصوف منذ بدايتـــه على مقتضى فطرته لادرك السابقين من العارفين .

وقد يكون تفكير الغزالي في التصوف العلمي والعملي بدأ في أيام اقامته بالمعسكر بعد رحيله اليها من نيسابور عقب وفاة أستاذه امام الحرمين سنة ٤٧٨ هـ وأقام بها الى سنة ٤٨٤ هـ وكان في هذه المدة يحضر مجلس نظام الملك للمناظرة والدفاع عن عقيدة أهل السنة التي كان النظام القيم السياسي عليها في عصره ، وكان نظام الملك سنيا صوفيا شديد التعلق بالصوفية ، شديد التعصب لهم ولمبادئهم ، مسرفا أشد الاسراف في البذل عليهم واعداد التكايا لهم ، وخدمتهم ، وتوفير الفراغ لهم لتعبدهم وصفاء أوقاتهم .

حتى واجه الخليفة بتلك القولة المأثورة عنه وهو يعاتبه لاسرافـه في النفقة عليهم ، وشغله بهم وأهمـــــال الجيوش ، وأمور الدولة وسياستها .

(لقد أقمت لك عبادا بالليل لو صاحوا لزلزلت الدنيا بخصومك ومادت بهم الارض) (١)

والغزالي شديد الحساسية مرهف الشعور ، عبقري النفس ، لوذعي العقل ، لماح الخاطر فلا يمكن أن يفوته ، وهو في مكانته من نظام الملك ، ملاحظة تعلق النظام بالطائفة وبذله العناية الفائقة في خدمتهم والغزالي اذا لاحظ تحرك ، واذا تحرك مضى قدمـــا ، لا يلتفت خلفـــه فهل يكون خاطر الغزالي تحرك نحو النظر في شأن الصوفية وعلومهم وأحوالهم ومقـــاماتهم من يومئذ ، هو لابد ان يكون قد جارى النظام الحديث في أمرهم يقول الاستاذ طه عبد الباقي سرور : (كان لنظام الملك فضل توجيه الغزالي الى التصوف والصوفية وقد كان شـــديد

---

(١) الغزالي للاستاذ طه عبد الباقي سرور

الخصومة لهم شديد الاسراف فى نقدهم ، فاندفع الغزالى كعادته يبحث كتبهم ويغشى مجالسهم ، بل ويشترك فى حلقات ذكرهم) .

ولكن الغزالى عاد الى التدريس فى مكان استناده امام الحرمين بنيسابور ، وله فيها عهود فى الجدل والمناظرة أيام تلمذته على الامام ، ويظهر ان ذلك شغله عن مداومة النظر فى التصوف فتوقف الى حين ، أو على التحقيق صرفته عنه دواعى منصبه الذى تولاه ، وهو منصب خطير جدا ، وكان فيه مرموقا منظورا اليه ، والتصرف يطالبه بقطع علائقه بالدنيا ، وهو بهذا المنصب مغمور فيها ، فلم يتسع له المجال لمتابعة السير مع الصوفية ، ولكنا لا نعتقد ان الغزالى وهو لماح الخواطر، عظيم الروح ، عبقرى العقل ، تجرد بمنصب التدريس من كل أثر لصوفية المعسكر الذين عاشرهم أكثر من أربع سنوات ، واذا أضفنا هذا الاثر الى الاثر الاول التقليدى على يد شيخه الاول فى طفولته خلص لنا أن الصوفية داعبت عقل الغزالى وروحه منذ طفولته ، وفى عنفوان شبابه ، ثم جدت به وأحاطته بشباكها فى رجولته المستحكمة ، فجذبته اليها جذبا اضطراريا ، فكان منها وكانت منه ، وكان لها المدره والمفوه البارع، والعقل المدافع ، والروح المشرق ، والقلب الشفاف ، فلما فرغ لها بسط طرائقها ، ومهد للناس أحوالها ، وأحكم لهم أصولها حتى استقامت على يده علما مؤصلا بقواعده وأصوله وآدابه وسلوكه .

واذا كان علم الكلام ، الفلسفة والتصوف ، لم يظهر أن واحدا منهما هو الذى حل رابطة التقليد عن الغزالى وهى علومه التى صال فيها وجال وصنف وكتب وأخذ ورد فما توجيه كلامه فى حل رابطة التقليد عنه فى سن الصبا .

علم الكلام والتصوف

اشتركا في حل رابطة التقليد

عند الغزالي

والغزالي ينظر الى علم الكلام نظرين :

النظر الاول ، باعتباره علما يقوم على صحة النظر في الادلة والبراهين العقلية التي تحقق قضاياه وتثبتها اثباتا يحميها من زعزعة المناقضات والمعارضات والشبه ـ يؤدي الى ضرب من اليقين العقلي في حدود المقاييس العقلية المعتبرة في النظر البرهاني عند من يسلمها .

وهذا النظر هو ما يقصده الغزالي بقوله عن هذا العلم : (فصادفته وافيا بمقصوده) وهو بهذا الاعتبار مؤد بمن حصله تحصيلا كاملا ، ونظر فيه نظرا استدلاليا الى أن تنحل عنه رابطة التقليد العقائدي بالنسبة للعقائد الحقة المأخوذة أولا بالتقليد النقلي عن الكتاب والسنة من نصوصهما القطعية ومن استنباط علماء الاسلام فيما لا اختلاف فيه ، وهذا لا يسمى في نظرنا تقليدا بالمعنى المشهور بل هو أجل أنواع الاجتهاد .

وقد صرح الغزالي في المنقذ من الضلال بان مقصود هذا العلم (هو حفظ عقائد أهل السنة على أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة ، فقد أنقى الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم كما نطق بمعرفته القرآن والاخبار) .

والغزالي بلغ ذروة هذه المرتبة ، فكان امام نظارا ، جادل عن عقيدة أهل السنة ودفع عنها شبه خصومها ومناقضاتهم ، دفعا جعل الناس يلوذون به باعتباره الحارس للعقيدة بقوة حجته ، وهذه مرتبة لا يبلغها الا من انحلت عنه رابطة التقليد في العقائد الموروثة) .

وهو يقول عن أصحابها : (ولقد قام طائفة منهم بما أيدهم الله تعالى فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة .

وقد كان هو في عصره أمام هذه الطائفة ، وعلى هذه الدعامة في

الجدل والمناظرة قام مجده في نيسابور وبغداد في رحلته الاولى الى مجلس أستاذه امام الحرمين ، والى ولايته التدريس في المدرسة النظامية في بغداد ، فقد انتدب نفسه للدفاع عن عقيدة أهل السنة ، وندبته عبقريته الجدلية لمناهضة المعتزلة ، والتعليمية ، وهما أقوى الطوائف المعارضة في عصره ، فأخمد جذوة بدعتهما وتعلق الناس به وبلـــغ من الصيت وعريض السمعة ما لم يبلغه أحد من أقرانه .

ومن هنا يترجح عندنا ان علم الكلام بهذا النظر هو الذي حـــل رابطة التقليد عن الغزالي وبلغ من مبلغ الاجتهاد والتحقيق ، وان كان ابن السبكي يشكك في ذلك فيقول ولم أر له مصنفا في أصول الدين بعد شدة الفحص الا أن يكون قواعد العقائد ، وعقائد صغرى ، وأما كتاب مستقل على قاعدة المتكلمين فلم أره) .

وهذا التشكيك لا يقوم على أساس من اليقين ، لان عـــدم رؤية الشيخ ابن السبكي رغم شدة تفحصه كتابا مستقلا في أصول الدين على طريقة المتكلمين ، لا يدل على عدم الوجود ، والغزالي نفسه يصرح بأنه صنف في علم الكلام بعد أن أحكمه على أستاذه أمام الحرمين مصنفات ويؤيد ذلك :

اولا : مواقف الغزالي التي تواترت أخبارها منـــذ لقي شـــيخه الجويني ، وتلقى عنه مذهب الشافعي والاصليين والمنطق ، وبرع في ذلك وأحكمه ، وانتهض في حياة أستاذه للرد على أرباب المذاهب والنحل وأبطال دعاويهم ، فتهافوا أمام صولة منطقه وقوة عارضته وساطع حجته .

ثانيا : على ما بثه في مؤلفاته الاصـــولية والفلسفية والجدلية والعقائدية ، فانها كلها تنضح بالذب عن عقيدة أهـــل السنة ومدافعة خصومهم بلوازم مسلماتهم ، وهي الطريقة المفضلة عند الغزالي ، السائدة في مؤلفاته حتى كتابه الذي أفرده للرد على الفلاسفة واظهار ضـــعف مقالاتهم وكشف ما فيها من خداع وتلبيس ، وهو الكتاب المعروف باسم (تهافت الفلاسفة) الذي عقـــده خصيصا لموضوعه ، فانه يجري فيه معهم على نمط الالزام ولهذا ترى الفيلسوف ابن رشد يحمل عليه ويتهكم به في كتابه (تهافت التهافت) الذي رد به على الغزالي ، ويرميه بالجهل بالفلسفة ، ونافيا باعتباره اشعريا أي متكلما بلسان الاشاعرة الذين هم أهل السنة في نظر علماء الكلام ، وهذا بين مبثوث في ثنايا هـــذا الكتاب .

ثالثا : للغزالي كتاب « الاقتصاد في الاعتقاد » وهو من أعمـــق واوسع ما كتب في موضوعه ، ولا ندري هـــل يعنيه ابن السبكي في

ضمن الكتابين اللذين ذكرهما ، فيكون من قبيل تعدد الاسماء أو لم يطلع عليه وهذا بعيد ، أو أطلع عليه ولم يره كذلك ؟ والغزالى نفسه يقول في كتاب (جواهر القرآن) وهذا العلم ـ أى علم الكلام ـ قد شرحناه على طبقتين ، سمينا الطبقة القريبة منهما الرسالة القدسية » والطبقة التى فوقها الاقتصاد فى الاعتقاد » .

النظر الثانى :

ينظر الغزالى الى علم الكلام باعتباره علما لا يفى بمقصوده الخاص به فيما بينه وبين الله تعالى فيما يطلبه من اليقين فى ادراك الحقائق ادراكا تثبته الضرورة العقلية التى ينكشف معها المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم .

هذا النظر بهذا الاعتبار هو الذى دفع الغزالى الى أن يقول عن علم الكلام بالنظر الاول : (وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا أصلا ، فلم يكن الكلام أى بالنظر الاول ـ فى حقى كافيا ، ولا لدائى شافيا) .

بيد أن أبا حامد رحمه الله يعترف ان هذا نمط فى تطلب الحقيقة خاص به ، وبمن كان على غراره ، ويصرح بأن علم الكلام بالنظر الاول قد يكون نافعا لغيره محققا لغرضه (فان أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به مريض آخر) .

والغزالى يرى فى كتابه (ميزان العمل) أن لكل كامل ثلاثة مذاهب

أحدها ـ مذهب الآباء والاجداد والبلد الذى فيه النشوء والمعلم الذى أخذ عنه .

ثانيها ـ مذهب الارشاد والتعليم لمن جاء مستفيدا مسترشدا .

ثالثها ـ ما يعتقده الرجل سرا بينه وبين الله عز وجل ، لا يطلع عليه غير الله تعالى ولا يذكره الا مع من هو شريكه فى الاطلاع على ما اطلع أو بلغ رتبة الاطلاع عليه ويفهمه ، وذلك بأن يكون المسترشد ذكيا ولم يكن قد رسخ فى نفسه اعتقاد موروث نشأ عليه وعلى التعصب له ، ولم يكن قد انصبغ قلبه انصباغا لا يمكن محوه) .

فعلم الكلام بالنسبة للمذهبين الاولين كاف بمقصودهما محقق للغرض المطلوب لهما ، وبالنسبة للمذهب الثالث الخاص باعتقاد الشخص فيما بينه وبين الله تعالى قد يحقق الغرض عند بعض الناس ، ويكفى لمقصوده ، وما دام هذا المذهب خاصا سريا لا يبوح به صاحبه

الا لمن كان على شاكلته حسا ومعنى فلا يحتاج للمناضلة عنه والجدل فيه ، فهو لا حاجة به الى علم الكلام ولا الى أى لون من البراهين الكلامية والادلة المنطقية التى يقصد بها حماية العقيدة من شبه المبتدعة وشغب المنحرفين .

ومن ثم يخلص للبحث :

أولا : ان علم الكلام هو الذى حل عن الغزالى رابطه التقليد العام فى العقيدة فى سن قريبة عهد بسن الصبا باعتباره مرشدا ومعلما ، ومناضلا لحماية عقيدة العامة من شبه المبطلين وأضاليل الفرق ، لانه العلم الذى أحكمه وتضلع فيه على قيمة عبقرى المناظرين فى عصره أستاذه امام الحرمين ، وكان إذ ذاك فى سن يصدق عليها انها قريبة عهد بسن الصبا .

ثانيا : ان التصوف هو الذى حل عن الغزالى رابطه التقليد الخاصة به التى كان يحسها من نفسه ويريد أن يقتلعها بيقين لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم بحيث لو تحداه من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا فى معلومه .

وهذه مرتبة حصل عليها الغزالى — كما يقول فى كتابه (المنقذ) — بعد أن تخلخلت فى نظره دعائم المحسوسات والعقليات فى توصيلها له الى ذلك اليقين الخاص الذى يطلبه فى ادراكه للحقائق ، وبعد أن اضطربت أعصابه وتوقف عن النظر مدة كان فيها — كما يقول — على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال .

وفى ذلك يقول فى (المنقذ من الضلال) : (فتحرك باطنى الى طلب حقيقة الفطرة الاصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والاستاذين والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات فقلت فى نفسى أولا انما مطلوبى العلم بحقائق الامور فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هى ؟ فظهر لى ان العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لايبقى معه ريب ولايقارنه امكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الامان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا وانكارا فانى اذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة فلو قال لى قائل : لا بل الثلاثة أكثر بدليل انى أقلب هذه العصا ثعبانا ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه لم أشك بسببه فى معرفتى ولم يحصل لى منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه فاما الشك فيما علمته فلا ، ثم علمت ان كل ما لا أعلم على هذا الوجه

ولا اتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه وكل علم لا أمان معه فليس يعلم يقينى .

ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسى عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة الا فى الحسيات والضروريات فقلت الآن بعد حصول اليأس لا مطمع فى اقتباس المشكلات الا من الجليات وهى الحسيات والضروريات فلا بد من أحكامها أولا لاتيقن ان ثقتى بالمحسوسات وأمانى من الغلط فى الضروريات من جنس أمانى الذى كان من قبل فى التقليديات ومن جنس أمان أكثر الخلق فى النظريات أم هو أمان محقق لا غدر فيه ولا غائلة له فاقبلت بجد بليغ أتأمل فى المحسوسات والضروريات وانظر هل يمكننى أن أشكك نفسى فيها فأنتهى بى طول التشكيك الى أن لم تسمح نفسى بتسليم الامان فى المحسوسات أيضا ، وأخذ يتسع الشك فيها ويقول من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حساسة البصر وهى تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف انه يتحرك وانه لم يتحرك بغتة ودفعة بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف وتنظر الى الكوكب فتراه صغيرا فى مقدار دينار ثم الادلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الارض فى المقدار ، هذا وأمثاله فى المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس باحكام ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل الى مدافعته ، فقلت قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا فلعله لا ثقة الا بالعقليات التى هى من الاوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة والنفى والاثبات لايجتمعان فى الشىء الواحد والشىء الواحد لا يكون حادثا قديما موجودا معدوما واجبا محالا ، فقالت المحسوسات بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقا بى فجاء حاكم العقل فكذبنى ولولا ان جاء حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى فلعل وراء ادراك العقل حاكما آخر اذا تجلى كذب العقل فى حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه وعدم تجلى ذلك الادراك لا يدل على استحالته فتوقفت النفس فى جواب ذلك قليلا وأيدت اشكالها بالمنام وقالت : أما تراك تعتقدفى النوم أمورا وتتخيل أحوالا وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ولاتشك فى تلك الحالة فيها ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل فيم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالاضافة الى حالتك ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك وتكون يقظتك نوما بالاضافة اليها فاذا أوردت تلك الحالة تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ، أو لعل تلك الحالة ما يدعيها الصوفية

انها حالتهم اذ يزعمون انهم يشاهدون فى أحوالهم التى اذا غاصوا فى انفسهم وغابوا عن حواسهم أحوالا لا توافق هذه المعقولات ولعل تلك الحالة هى الموت) .

وحصول الغزالى على هذه المرتبة من اليقين التى يدرك بها الحقائق ادراكا يقينا لا شك فيه لم يكن - كما يقول - عن نظم دليل منطقى ولا ترتيب كلام بقياس برهانى ، وانمـــا كان بنور قذفه الله فى قلبه فكان ذلك النور مفتاح اكثر معارفه وعلومه كما هو شأنه مع أربابه .

وهذا امر لا يجدى فيه النقاش والبحث ، لانه وراء النقاش والبحث، فمن انكره وطالب باقامة الحجة العقلية على صحته ووجوده ، قيل له ان العقل ليس هو الباب الوحيد لادراك الحقائق ، ومن قبله وســـلمه فهو مقلد لاهله او ذائق مذاقهم وشارب من مشربهم ، والغزالى رضى الله عنه يقول (فمن ظن ان الكشف موقوف على الادلة المجردة فقدضيق رحمةالله الواسعة .

اصل التصرف وأطواره

في الاسلام

أكثر الناس قديما وحديثا عن « التصرف » وحاول الباحثون من القدامى والمحدثين ان يتعرفوا على حقيقة هذا اللفظ في أوضـــاع اللغة ــ ومقاييسها الاصطلاحية ،فلم تسعفهم أصولها الوضعية وقواعدها القياسية، وتفريعاتها الاشتقاقية بأصل يمكن الاعتماد عليه في صحة نســـب هذا اللفظ الى أبوابها ٠

وفي ذلك يقول أبو القاسم القشيري في رسالته : (هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : رجل «صوفي» ، وللجماعة (صوفية) ، ومن يتوصل الى ذلك يقال له «متصوف» وللجماعة «متصـــوفة» وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قد يأس ، لا اشتقاق ، والا ظهر فيه انه كاللقب ٠

فأما قول من قال : انه من «الصوف» ، وتصوف اذا لبس الصوف، كما يقول : تقمص اذا لبس القميص ، فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف ٠

ومن قال : انهم منسوبون الى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالنسبة الى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي ٠

ومن قال : انه مشتق من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة ٠

وقول من قال : انه مشتق من الصف ، فكأنهم في الصف الاول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى ، فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة الى الصف ٠

ثم ان هذه الطائفة اشهر من أن يحتاج في تعيينهم الى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق ٠

ونحن نميل الى انه لقب منقول تعريبا من لغة غير عربية، فهو حادث مع حدوث الالفاظ الدخيلة التي فاضت على العـــربية مع الافكار والمعـــاني والمذاهب الاراء في القرن الثاني من الهجرة ، لم يعرف معرفة لقبية لطائفة من الناس بعينها قبل ذلك في تاريخ الاسلام ، وقد يكون عرض له شيء من التصرف اللساني لصقله تخفيفا كما عرض لكثير من الالفاظ الوافدة ٠

قال الامام أبو القاسم القشيرى : (ان المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ لا فضيلة فوقها ، فقيل لهم : الصحابة ولما أدرك أهل العصر الثانى سمى من صحب الصحابة التابعين ، ورأوا ذلك أشرف سمة ، ثم قيل لمن بعده عناية بأمر الدين « الزهاد والعباد » ثم ظهرت البدع وحصل التداعى بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا ، فانفرد خواص اهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم «التصوف» واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الاكابر قبل المائتين من الهجرة ، انتهى كلام القشيرى .

ونحن لا نستبعد ان يكون للاحداث السياسية التى طمت دواهيها فى اواخر العصر الاول والعصر الثانى ، وكذلك الاحداث الاجتماعية التى حولت المجتمع الاسلامى عن وجهته الاولى فى الجرى مع طبيعة الدعوة الاسلامية على منهاج الفطرة ــ الانسانية بعيدة عن التفلسف والتعقيدات الفكرية ــ اثر كبير فى تلقيب الفرق وتسمياتها ، واختصاص طائفة معينة من المسلمين بهذه التسمية «التصوف» .

وقد كانت السمة الغالبة على هذه الطائفة التى تميزت بها على غيرها من الطوائف فى عنوانها الظاهر هى « الحزن » لشعورها بظلام فادح ، واضطهاد جارح ، ومطاردة قاهرة ، فزهدت فى رغائب الدنيا وزخارفها ، وسائر مظاهرها ، واعتزلت الحياة ، واستوحشت من محافلها ، وأنست الى محاريب الخلوات متعبدة زاهدة ، متقشفة أشد التقشف فرارا الى الله تعالى بدينها .

واذا اتضح هذا ــ وهو عندنا صحيح ــ كانت بقية السلف من آل البيت النبوى وأنصارهم من ذوى الألباب الراسخين فى العلم والأدب الشرعى من أهل الصفاء والاخلاص والطهر والتقى هم الطليعة لهؤلاء الزهاد العباد ، وتبعهم فى سمتهم من كان صغوه الى طريقتهم فى الزهد والعبادة ، ثم انشعبت هذه الطليعة الى شعب متعددة ، وافترقت فرقا مختلفة ، اتسمت كل فرقة منها بسمة نزعت بها الى وصف خاص مميز به تسمت وبلقبه عرفت ، يعمها كلها التقشف والزهادة فى ترف الدنيا ، وبقى اسم « التصوف » لخيرهم طائفة ، وأمثلهم فرقة ، وهم الذين أقاموا على عمود الاسلام ، متمسكين بظواهر شرائعه عاملين ببواطن حكمها وأسرارها ، وعنوانهم الاكبر حب آل البيت حبا لا يخرج بهم عن جادة الحق والهدى ، وكانوا بذلك هم خلاصة الفرقة الناجية الذين عرفوا فى تاريخ الاسلام بأهل السنة .

وقد كان أوائل الفرق الاسلامية قبل التشعبات المتكثرة بإغراء

السياسة من هذه الطليعة الزاهدة المتعبدة ، ففي المعتزلة الاوائل عمرو ابن عبيد ، كان لا نظير له يسامبه في الزهد والتجافي عن الدنيا ، وكان في أوائل الخوارج أبو حمزة الشارى وهو نسيج وحده في التعبد وقهر النفس ٠

فلما غمرت السياسة المجتمع الاسلامي وساقته بعصاها انزلقت الفرق الى مزالق الدنيا ، ولم يبق على عهد الزهادة سمة عامة ، سوى عباد أهل السنة وشيعة آل البيت ، وسوى الخوارج ممن فارق الطليعة في بعض الاصول أو الفروع ٠

فأما الخوارج فقد لزمهم اسم الخروج من الطليعة وكانوا طليعتها زهدا أو تعبدا وتجافيا عن الدنيا ، لانهم جهلوا سنة الله في شرائعه ، ففروا بدينهم من الله جهالة على الله ، وتمانيا بالزهد والتعبد ، وقد انبأنا بخبرهم سيدنا رســــول الله صلى الله عليه وسلم في حديث ذالخويصرة وقائله ضلالتهم ذى الثدية الذى جهل على نبوة الرسالة الخالدة الخاتمة غرورا بتعمق التعبد ، كأنما يتاجر الله مدينا بعبادته ، فيمثل بها ادلال الجفاة المغرورين بالله ، المارقين من الـــدين من باب « خضراء الدمن » مروق السهم من الرمية ، وهم لا يشعرون ٠

ولما توافدت مواكب الامم بميراثها من العقائد والآراء الناشئة في وثنيات الماضى السحيق على ساحة الاسلام بعد ذيوع الدعوة الاسلامية لتدخل فيه طائعة راغبة أو كارهة كائدة وجدت هــذه المواكب الدخيلة نفسها بين المجتمع الاسلامي في لجة من البشر تموج بأجناس الانسانية وعقائدها وأخلاقها وعاداتها ، وهي تتدافع وتتزاحم وتتواثب ، يسوقها ــ أحيانا ــ ميراث العقائد المترسب في حنايا مشاعرها ، وتسوقها ــ في أحيان أخرى ــ السياسة الظالمة الى مطامعها متسترة بجلباب الدين ٠

واذا بالضعفاءأهل المسكنة يدفعون بالمناكب الى الوراء لا يستطيعون دفاعا ولا مواكبة وينظرون حولهم فاذا باخوة لهــــم عاكفون على أحلاس الاحزان ، يروضهم حال الامة وهي تهوى مع السياسة المترفة ومــــع ميراث الاباطيل في العقائد الوثنية ، فلا يملكون الا الانطواء على أنفسهم يتنفسون زفيرا ، قنعوا من الدنيا بالكفاف أو بمـــا هو دون الكفاف ، وفرغوا أنفسهم أو فرغتهم الحياة لانفسهم فاستراحوا وأراحوا ، لانهم وزنوا الدنيا التى فرت منهم أو فروا منها بميزان الحق ، فرأوها كظل شـــــجرة لا يزال يتنقل ثم يمحى ، فعرفوا ان طالب الدنيا فاقدها ، فأعرضوا عنها بقلوبهم أعراض العليم بحقيقتها الذى يراها مـــع أهلها كمصيدة الفئران المزودة بطعم شهى ، أن ادركت الدنيا أحـــدا منهم أو ادركها أعرض عنها ، فان تعلقت به أخـــذها فقال بها هكذا وهكذا في

سبيل الخير ، يسعد بها المحرومين ، ويرحم بها المعذبين ، وان لم تدركه ولا هو أدركها فى سيره الى الله لم يبخع نفسه تأسفا على فواتها ، بل لا يمد اليها نظره ليعرف أين مراحها ومغداها أولئك هم الصـــالحون أهل الصفاء والاخلاص والتقى ، أنسوا بالله فأفاض عليهم من بحـــار نعمه واردات الاشراق ، وانفتحت لهم من ينابيع العبودية عيون المعـــرفة فكانوا شهودا لجلال الله وكبريائه ، وهم عن دنيا الناس والاشـــياء غائبون .

يقول أبو سعيد الخراز فى كتابه « الصدق » : الزاهد فى الدنيا حقا لا يذم الدنيا ولا يمدحها ، ولا يفرح بها اذا أقبلت ، ولا يحزن عليها اذا أدبرت . ويقول النورى نعت الصوفى السكون عند العدم والايثار عنـد الوجود .

اما الذين تزهـدوا عجزا عن التزاحم عن الدنيا ، وتعبدوا يأسا من نيلها فاولئك الذين بخعتهم الدنيا لانهم وزنوها بميزان عجزهم ، فقنعوا بزيادها اليأس ، وتعبد العجز ، وفرغوا أنفسهم عن تطلابها فأراحوا ولم يستريحوا وشغلت قلوبهم بوردات كلمع البرق فى أديم السراب ، لا تستقر ولا تنحسر ، تخالط عليهم النور بالظلام كعبث مردة — الشياطين فى أودية الخراب ، لا يدرون مامعهم شىء ان كان معهم من الاشياء شىء ولا يزالون يسبحون فى بحار السراب حتى تتخطفهم شياطين الاباطيل ، وتقذف بهم فى أودية الضلال فهم مرة حلوليون ، وأخـــرى اتحاديون ، وثالثة اباحيون ، يعبدون ما ينحتون بأصابع الاضـــــاليل ، ويدعون مايتمثلون بأخيلة المغرورين ، وينطقون بما يخيلون من شطحات المبرسمين

والزهد الصادق فى الدنيا بعروق القلب عنها مع القيام بحق شرائع الله تعالى مخلصا له الدين هو الميزان الصادق فى شرعة الاسلام لوزن التصوف الصادق ، بل هو كل ماكان معروفا فى صدر الاسلام من عمل زوى تحت ماسمى فيما بعد (تصوفا) صادقا ، وهو ماكان يعرف بالمعرفة . لان العارف بالله لا يشغله عن الله شىء لاطلب الدنيـــا ولا — الهرب منها ، يقول يوسف بن على فى رواية السلمى (١) ، لايكون العارف عارفا حقا حتى لو أعطى مثل ملك سليمان عليه السلام لم يشغله عن الله عن رجل طرفة عين .

ويقول أبو عمر الانطاكى سمعت رجلا يقول للجنيد : من أهل المعرفة اقوام يقولون : ان ترك الحركات من باب البر والتقوى ، فقال الجنيد : ان هذا قول قوم تكلموا باسقاط الاعمال ، وهو عنـــدى عظيم ، والذى

(١) الرسالة القشيرية

يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا ، فان العارفين بالله أخذوا الاعمال عن الله تعالى والى الله تعالى رجعوا فيها ، ولو بقيت الف عام لم أنقص من أعمال البرذرة (١)

والاصل فى ذلك حديث حارثة ، وهو مروى من طريق صحيح قال النبى صلى الله عليه وسلم لحارثة : (كيف أصبحت يا حارثة) ؟

قال : مؤمنا حقا يا رسول الله ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: (وما حقيقة ايمانك ؟) .

قال : عزفت نفسى عن الدنيا فاظمأت نهارى وأسهرت ليلى ، وكأنى أنظر الى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر الى أهل الجنة يتناعمون ، والى أهل النار يتعاوون فقـــال النبى صلى الله عليه وسلم : (مؤمن حقا نور الله قلبه عرفت فالزم) .

ويقول أبو سعيد الخراز فى كتاب « الصدق » : وأعلى درجات الذين زهدوا فى الدنيا هم الذين وافقوا الله تعالى فى محبته ، وكانوا عبيـــدا غفلاء عن الله عز وجل ، أكياسا محبين ، سمعوا الله جل ذكره نعم الدنيا ووضع من قدرها ولم يرضها دارا لاوليائه ، استحيوا من الله عز وجل أن يراهم راكنين الى شىء ذمه ولم يرضه وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضا لم يبتغوا عليه من الله عز وجل جزاء ، ولكن وافقوا الله فى محبته كرما ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ويروى أبو سعيد فى معنى حديث حارثه عن عمر بن عبد العزيز أنه نظر الى شاب مصفر ، فقال : « ما هذا الصفار يا غلام ؟ قال : أسقام وأمراض ! قال : لتخبرنى !

قال : يا أمير المؤمنين ، عزفت نفسى عن الدنيا فاســـتوى عندى ذهبها وحجرها وكأنى أنظر الى أهل الجنه فى الجنة يتزاورون ، وأهـــل النار فى النار يتعاورون .

فقال له عمر بن عبد العزيز : أتى لك هذا يا غلام ؟

قال الغلام : اتق الله يفرغ عليك العلم افراغا .

وقد أورد أبو سعيد رضى الله عنه فى كتابه اشكالا يورده أهـــل البطالة والركون الى الدنيا والاستغراق فى حبها وجمعها ، وأجاب أحسن

---

(١) الرسالة القشيرية .

اجابة ، وتلخيص ما قاله : فكيف ملك الانبياء عليهم السلام الامـوال والضياع .. والصالحون من بعدهم ؟؟

فقال : هذه مسألة كبيرة ، وفيها كثير .

اعلم أن الانبياء عليهم السلام والعلماء والصالحين من بعدهم رضى الله عنهم أمناء الله تعالى فى أرضه على سره ، وعلى أمره ونهيه ، وفهموا لماذا خلقهم .. فوافقوه فى محبته .. ثم وقفوا عنـد ذلك مواقف العبيـد الالباء عن القابلين عن الله والحافظين لوصيته ... فسمعوا الله تعـالى يقول : (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) ... وقال : (لله ما فى السموات وما فى الارض) فايقن القوم أنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك ما حولهم ومنكهم فانما هو لله ، غير انهم فى دار الاختبـار والبلوى ...

فمن ملك من أهل العمل عن الله تعالى وأهل العلم شيئا من الدنيا فهو معتقد أن الشيء لله عز وجل لا له ، الا هو من طريق حق ما خـوله الله تعالى وهو مبلى به حتى يقوم بالحق فيه ...

فالقوم كانوا خارجين من ملكهم فى ملكهم ناعمين بذكر الله وعبادته غير ساكنين الى ما ملكوا ، لا يستوحشون من فقده ان فقدوه ، ولايفرحون بالشيء ولا يحتاجون الى العلاج والمجاهدة فى اخراجه ، ... وهذا النبى صلى الله عليه وسلم يأتيه ملك من السماء لم ينزل قط قبل ذلك فيقول له : هذه مفاتيح خزائن الارض تسير معك ذهبا وفضة .. فلم يختر النبى صلى الله عليه وسلم وقال أجوع مرة وأشبع مرة .

وهذا ابو بكر — حين حث النبى صلى الله عليه وسلم على الصدقة — جاء بماله كله ، لانه كان أقوى القوم ، فقال له النبىصلى الله عليه وسلم : (ما خلفت لعيالك ؟) قال : الله ورسوله ، ولى عند الله مزيد . ثم جـاء عمر رضى الله عنه بنصف ماله ، فقال له النبى صلى الله عليـه وسـلم : ما خلفت لعيالك ؟ قال : نصف مالى ، ولله عندى مزيد .

قلت : فانظر الى قول الصديق الاكبر وهو فى مقام الجمع بـين الفناء عن نفسه وماله ، والبقاء بالنسـبة لصدق رجائه فى الله تعالى : (ولى عند الله مزيد) فهو مشغول بالله غنى بما عند الله . ثم انظـر الى قول الفاروق وهو فى مقام الصدق مع الله : (ولله عندى مزيد) والفرق بين الشيخين هو فرق ما بين المقامين .

قال أبو سعيد : ثم عثمان يجهز جيش العسرة كله بجميع ما يحتاج اليه ويحفر بئر رومه .

أفلا ترى أن القوم انما كانوا معدين الشيء لله تعالى ؟؟ ... وهـذا

أبو بكر رضى الله عنه حين جاءته الدنيا راغمة من حلها لم يرفع بها رأسا، وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين جاءته الدنيا راغمة من حلها كان طعامه الخبز والزيت ، وكان فى ثوبه بضع عشرة رقعه بعضها من أدم وقد فتحت عليه كنوز كسرى وقيصر ، وهذا عثمان رضى الله عنه كان كانه واحد من عبيده فى اللباس والزى . ولقد روى عنه أنه رؤى خارجا من بستان له وعلى عنقه حزمة من حطب فقيل له فى ذلك ؟ فقال : أردت أن أنظر نفسى هل تأبى ؟

وهذا على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الخلافة قد اشترى ازارا بأربعة دراهم ، واشترى قميصا بخمسة دراهم ، فكان فى كمه طول فتقدم الى خراز فأخذ الشفرة فقطع الكم من عند أطراف أصابعه ، وهو يفرق الدنيا يمنة ويسرة .

وهـــذا الزبير رضى الله عنه يختلف حين مات من الدين مائتى الف او أكثر ، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل ، وهذا طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه يعطى حلى أهله لمن سأله .

فهذا يدل على أن القوم كانوا كما قال الله تعالى حين أمرهم فقال (انفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) .

هذا التصوير الذى صورنا به الجو العام فى سيرة المسلمين الاولين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم من زهاد الصدر الاول ومتعبديهم من العزوف عن الدنيا والصدق مع الله فى معرفة جلال كبريائه ، والقيام بحق شكره بالتعبد له فى سائر حركاتهم وسكناتهم على قدم الاخلاص ، والذى صورنا به زهادة اليائسين وتعبد العاجزين عن المنافسة على الدنيا وتسلط شياطين الاهواء على عقولهم وأفئدتهـــم حتى أخرجتهم الى وثنيات مظلمة زعمـــوها فتوحات مشرقة هو — فى نظرنا — واقع ما يصح أن يطلق عليه اسم « التصوف فى تاريخ الاسلام » لان اللون الاول منه وهو لون الزهادة الصدقة والتعبد الخالص ، واليقين المصفى من حظوظ النفس هو الذى يعرفه دين الاسلام وتعرفه شرائعه ، أما اللون الثانى وهو لون الزهادة اليائسة والتعبد القاتم فهـــو اللون الوافد من خارج الاسلام مع العقائد الوثنية التى حملتها طوائف الزاحفين الى ساحة الاســـلام بقلوب مليئة بالاباطيل ، وعـــندنا كله تعرفه طبيعة الاسلام ، ولا تقره ولا ترضاه مهما تأول المتأولون .

فالتصوف فى صدر الاسلام — على غربة هذا اللفظ عن الاســـلام واللغة العربية — كان عملا محضا ، يقوم على اخلاص التعبد لله تعـــالى فى كل امر من أمور الدين والدنيا ، وهذه الدنيـــا عندهم دين ، لانهم

يأتون ما يأتون منها وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، لا يسارعون الا الى الخيرات وهم لها سابقون ، ويقوم على الشفقة على خلق الله والرحمة لهم ، يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان امرأة بغيا رحمت كلبا وجدته يلهث من شدة العطش ، فشقت خمارها لترفع له الماء من البئر فسقته فاطلع الله عليها فغفر لها ، ويسمعون منه صلى الله عليه وسلم ان امرأة دخلت النار في هرة ، حبستها فلم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الارض .

ويرونه صلى الله عليه وسلم يحلم على اعرابي جاءه يسأله شيئا من متاع الدنيا فيغلظ الاعرابي القول للنبي صلى الله عليه وسلم ، فيهم بعض الصحابة ليبطش به ، واذا بالنبي صلى الله عليه وسلم ينهنه صاحبه ذا العزيمة الباطشة ثم يقوم صلى الله عليه وسلم الى بيته ويزيد في الاحسان الى الاعرابي حتى يبدل غلظته لينا ولطفا ، وجفوته سماحة ودعة ، ثم يقول له : أرضيت ؟ فيقول الاعرابي : نعم رضيت ، فجزاك الله من اخ وعشيرة خيرا ، فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم : انك قلت ما قلت ، وفي نفس اصحابي عليك شيء ، فاخرج اليهم ؛ وقل امامهم ما تقول ، ويخرج الاعرابي راضيا ، ويعرف هذا الرضا في وجهه اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتسكن نفوسهم ، ويرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم الى ثمرة التربية العملية للنفوس البشرية ، فيقول لهم : لو تركتكم وما كنتم تريدون به لدخل النار .

فهذا درس عملي ، قل فيه الكلام وكثر فيه العمل ، وكان حديث القلوب فيها أبلغ من براعة الالسنة ، حيث ملأها رحمة وسماحة وغرس فيها حب الجود والبذل وزينها بالحلم ، وجمع لها مكارم الاخلاق .

درس يجعل النفس الانسانية مرآة صادقة لتلقي صورة الخير والبر والشفقة على عباد الله ، لانهم عباد الله .

درس يتعلم منه حاضروه في مدرسة النبوة والذين يسمعونه بآذان قلوبهم ممن يقتفي آثارهم كيف يقوى على دوافع بشريته ، ويرتفع فوق مستوى دواعي غرائزه ، فيحاسب نفسه على الخطرات والهواجس وفلتات الكلمات ، فضلا عن كبير الاعمال ، وعظيم الاقوال ؛ وذلك ان محاسبة النفس هي الدعامة الاولى في بناء الاخلاص ، والاخلاص لباب العبودية ، والعبودية هي الباب الى حضرة القدس والشهود ، يقول ابو سعيد الحسن البصري : ان المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله عز وجل ، ومن دقيق المحاسبة للنفس فيما يبدو أمرا صغيرا عند الذين لا يلاحظون أنفاسهم لله تعالى ، وكبيرا عظيما عند من ادرعوا بالتقى وذل العبودية ما رواه المحاسبي في « الرعاية » من طريق أبي داود الطيالسي عن عبد

العزيز الماجشون عن هشام بن عروة عن عائشة رضى الله عنها : ان أبا بكر رضى الله عنه قال لها عند الموت : ما أحد من النـــاس أحب الى من عمر ، ثم قال لها : كيف قلت ؟ قالت : قلت : ما أحد من الناس أحـــب الى من عمر ، فقال : لا ! ما أحد من الناس أعـــز على من عمـر • قال المحاسبى : فتدبر كلمة قالها ، ثم أبدلها بكلمة غيرها •

وبهذه المحاسبة للنفس يكون وقوفهـــا أبدا على قدم الاخلاص لله فى العبودية فتطهر من أدران الرذائل الحيوانية ، وتصفو من كدرات الظلمات المادية ، وتتحرر من رق الشهوات والرغائب ، وتتخلص من قيود الانانيـــه منطلقة فى بقائها الانسانى الكامل الى آفاق الاشراق الروحى ، وتخضـــع لها جوارح الجسم طواعيه منسجمة مع توجهات القلب بكليته الى الله تعالى انسجاما يستوى فيه ظاهر الانسان وباطنه فى سائر حركاته ، فيحبـــه الله حبا يسخره به لمرضاته ، فلا يراه الا حيث يحب ويرضى ، ويحب العبد الله حبا لايرى معه فى الوجود غيره ، واذا أحب الله تعالى عبدا كان له سمعا يسمع به وبصرا يبصر به ، ويدا يبطش بها ، وذلك نهاية مايطلبه العارفون، وهو الذى يدندن حوله العابدون السائحون ، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء •

أولئك هم الادلاء على الله لا يرجون أحدا فى معصية الله ، ولا يقنطون أحدا من رحمته يرضون أبدا بالصبر على البأساء والضراء ، والرضـــا بالقضاء ، والشكر على النعماء ؛ يحببون الله تعالى الى العباد ، يذكرهم ايديه واحسانه ، ويحثون العباد على الانابة الى الله تعالى ، علما بعظمة الله تعالى وعظيم قدرته ، وعلما بكتابه وسنته ، فقهاء فى دينه عماء بما يحب ويكره، ورعين فى ابتداع والاهواء ، تاركين التعمق والاغلاء ، مبغضين للجـــدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والاذى ، مخالفين لاهوائهم ، محاسبين لانفسهم ،، مالكين لجوارحهم ورعين فى مطاعمهم وملابسهم وجميع أحوالهم مجانبين للشبهات ، تاركين الشهوات ، مجتزئين بالبلغة من الاقـــوات ، متقللين من المباح ؛ زاهدين فى الحلال ، مشفقين من الحســـاب ، وجلين من المعاد ، مشغولين بيتهم ، مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكـل امرىء منهم شأن يغنيه ، علماء بأمر الآخرة وأهاويل القيامة ، وجزيل الثواب وأليم العقاب •

وذلك أورثهم ، الحزن الدائم ، والهم المضـــــنى ، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها (١) •

على هذا الصراط كان أئمة الهدى من أعلام مدرسة النبوة المحمدية واتباعهم الذين لم تشوش البدع الضالة عقائدهم ،، ولم تدنس الاهـــواء والشهوات أعمالهم •

(١) من كلام الامام المحاسبى نقلناه من مقدمة كتاب الرعاية التى اتبعها وراجعها الاستاذان الفاضلان عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور

مضوا طاهرين مطهرين على السمت الاقوم ، والنهج الاعدل الاحكم لم تلههم الدنيا عن سبيل العبودية لله ، مخلصين له الدين ، ولم يميلوا معها اعتزاز بزخارفها ، تركوها بشهواتها ولذائذها بجسومهم وارواحهم في غير رضا الله ، وأقبلوا عليها بجدها وشغلها بقلوبهم وعقولهم في رضا الله ، واتخذوها مطيتهم الى ساحة الاقبال على الله ، عقلوا عن الله بفضله أوامره ، وفقوا بتوفيقه نواهيه ، جعلوا الامر والنهى سياج اعمالهم ، بهما يتحركون ويسكنون ، لا يراهم الله حيث نهاهم ، ولا يفقدهم حيث أمرهم ، علماء بالله يخوضون بحار العلوم والمعرفة تفقها في دين الله ، واستطلاعا لجلال الله في صنائعه ، يجاهدون أعداء الله ليردوهم الى حظيرة حبه ، شفقة عليهم من سخط الله وغضبه ، ورحمة بهم ان ينالهم أليم عقابه يسكنون تحت وطأة الاقدار رضا بقضاء الله ، يقومون في حركاتهم بنعمة الله ، ويقعدون في خلواتهم لذكر الله ، قلوبهم معلقة بوشائج الرجاء في رحمة الله ، والخشية من مكر الله ، يخافون ربهم من فوقهم ، فلا تطمئن أنفسهم الى عمل من الاعمال ، يظمئون نهارهم ويسهرون ليلهم ، توابين أوابين ، قوامين بالقسط ، شهداء الله على أنفسهم بالقصور والتقصير في جنب الله ، يسمعون كلام الله ، وهم يبكون شوقا الى ماطالعوا من غيب الله فيما أعده من جزاء الرضا والرضوان لاحبابه وأوليائه ، وترتعد مفاصلهم فرقا من سخط الله ، تفيض أعينهم بالدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون في سبيل الله ، عكوف في مجالسهم على محبة الله ، مصفرة وجوههم ، نحيلة أجسامهم ، يابسة جلودهم ، يراهم الجاهل بالله عن غفلة منهم فيظنهم في سياق الموت من خشية الله ، لا يطفيء نور يقينهم نور علمهم مرهفة اسماعهم الى نداء الحق فاذا سمعوه انتفضوا كأنهم أرواح منطلقة من سجنها ، يحسبهم الغافل عن حقيقتهم اذا رآهم في انتفاضتهم جنة تتواثب في ملاعبها ، اذا استنفروا جهادا لاعلاء كلمة الحق ، نفروا باذلين أنفسهم لله كأنهم أسد الشرى تدفع عن عرينها ، وتذود عن أشبالها ، أشجع الناس قلبا ، وأسخاهم لله نفسا ، فرحين بنداء ربهم ، يقتلون ويقتلون ايقانا بوعد الله ، مستبشرين بما وفوا بعهد الله ، تدور وجوههم اشراقا اذا استشهدوا في حب الله كالقمر في تمامه ، يشرق في سماء صافية الاديم ، يقينهم محصن بالعلم ، وعلمهم معتمد على اليقين ، ايمانهم شهود ، ومنتهى معرفتهم بالله هو عجزهم عن الوصول الى حقيقة وراء — آيات الله ، يقول الصديق الاكبر في تصوير نهاية العارفين (العجز عن درك الادراك إدراك) انتزاعا من فيض اشراق النبوة في أدب العبودية (لا تحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك) .

وتفسير هذا : ان أرقى مقامات القرب هو مقام العبودية ؛ وهو

خصيصة الانبياء في اضـــافة التخصيص جملة ، لسائر الانبياء ، وتفصيلا مميزا لاولى العزم من الرسل ، ومنتهى مقام العبودية هو حجاب الادب الذى لا يهتك ستره بالتطلع الى سبحات الجلال الا مطرود محروم ·

وبهذا الادب الاشم الاعظم اثنى الله تعالى على حبيبه سيد الانبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم بعد الثناء عليه بتخصيصه باضافة العبودية بعد الثناء على نفسه بتسبيح ذاته وتقديس صـــفاته في قوله (سبحان الذى اسرى بعبده) وكان لذلك الثناء الاشم فى مقام (قـــاب قوسين أو ادنى) بقوله عزشانه (مازاغ البصر وما طغى) ·

ومن ثم كان ابو بكر الصديق رضى الله عنه هو الصديق الاكبر ، والتلميذ الاول لامام المقربين وسيد العابدين ، لان الله تعالى جمع له مافرق من معانى العبودية واسرار القرب فى سير العارفين العابدين المقربين من خاصة المؤمنين ، فهو المثل الاعلى لهم فى حياته وأعماله ، وسره واعلانه ، كما جمع الله تعالى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه سلم جميع مافرق من نعوت العبودية الخاصة فى جميع الانبياء والمرسلين ·

ويتفاوت حظ العابدين فى أدب العبودية ومراتبها بتفاوت درجات القرب من منبع الفيض فى العلم بالله تعالى ، ولما كان أبو بكر رضى الله عنه أقربهم الى سيدهم صلى الله عليه وسلم كان حظه منها الغـاية التى يقف دون ادراكها كل عابد من خاصة المؤمنين ·

وتأتى بعد ذلك درجات الصحابة اجمعين متتابعة تتابع مراتبهم من القرب الى رسول الله صلى عليه وسلم بما ناله كل واحـد منهم من نصيب فى العلم بالله تعالى ، وليس احد منهم رضى الله عنهم الا وله من ذلك حظ يفوق حظ كل ولى لله جاء بعدهم لاختصاصهم باشراق أرواحهم بوشحات انوار النبوة ، واعظمهم فى نفحات القرب الراشدون على مراتبهم فى الخلافة ، وهى أجل مراتب الولاية والعبودية ·

ولهذا كانت سيرتهم فى مجـال حياتهم وســـائر أعمالهم ، وكافة حركاتهم وسكناتهم فيما يأتون ويذرون هى الميزان لوزن حقيقة «التصوف» الذى يعرفه الاسلام ـ بحقيقته العملية التى تمثلت فى الزهد الواجـد والورع الصادق ، والتعبد الكامل ، والاخلاص الباعث على البر والاحسان لكافة الخلق ، لانهم عيال الله ، واحبهم اليه أكثرهم نفعا لعياله ·

وسيرة الصحابة رضى الله عنهم وخاصة الراشدين مدد من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم المعبر الى اشراق انواره من أراد العبور الى منازل القرب ، والطرق كلها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

مسدودة الا طريق اصحابه الناقلين الى الناس سيرته بسمتهم واعمالهم كما ان الطرق كلها الى الله تعالى مسدودة الا طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم في سيرته وسمته وسائر احواله وافعاله واقواله .

فالتصوف الذى يعرفه الاسلام عمل تطبيقى في واقع الحياة لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة خاصة اصحابه ، وقد أخذ عنهم بحقيقته — لا باسمه ولفظه — العابدون من تلاميذهم أهل المعرفة والعلم بالله ثم تلقاه مثلا حية من العمل في سيرة هؤلاء تلاميذهم الذين جاءوا من بعدهم من أهل التقى واليقين ، وكان هؤلاء وأولئك على نهج تستاذهم ومربيهم من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعملون كثيرا ، ولا يتكلمون الا قليلا ، فلم يعرفوا للتصوف عندنا خاصا يميزه عن علمهم بالكتاب والسنة ، ولم يعرفوا له نظاما خاصا يميزه عن نظامهم في حياتهم وسيرتهم التى عليها درجوا بين صفوف اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرفوا له طائفة خاصة تمتاز باوصاف الا توجد في كافة صالحى المؤمنين ، يكره أحدهم ان يتكثر بالناس يتبعونه ، ويمشون خلفه خشية العجب على نفسه ، روى ان محمد بن سيرين كان اذا خرج الى مكان يقصده وأراد بعض اصحابه ومريديه أن يصحبه يقول له : ان لم يكن لك حاجة فارجع .

ويكره أحدهم ان لا يجد السعى في الحصول على قوته وقوت عياله بل في الحصول على أكثر من ذلك صيانة لدينه وصلة لرحمه ، روى ان سعيد بن المسيب كان يقول : لا خيرة فيمن لا يجمع الدنيا يصون بها دينه وجسمه ، ويصل بها رحمه وكان رضى الله عنه يتجر في الزيت ، ولا يقبل صلات الخلفاء والولاة .

ويكره أحدهم ان يتميز على سائر المسلمين في زيه وشكله ومكانه في مجلسه . ويكره أحدهم ان يرى قعيد المساجد وغيره يسعى عليه بقوته ويمونه لا يدرى من اين جاءه هذا القوت ، يقول ابراهيم بن ادهم : (اطب مطعمك ولا عليك ان تقوم الليل ولا تصوم النهار) وابن ادهم هذا كان من أبناء الملوك ، لاحظته عيون العناية الالهية ، فخرج عن ملك الدنيا الى الله تعالى يطلبه في عز طاعته ، وكان يأكل من كسب يده ، يعمل للناس في الحصاد ، ويضرب لهم اللبن من الطين ، ويحرس البساتين .

وكانوا يكرهون التماوت في الحركات تظاهرا بالتقى ، وانما كانوا يحيون حياة الناس ، بكل ما فيها من جد وقوة في صالح العمل ، يرى احدهم ان خدمة فرسه التى اعده للجهاد في سبيل الله ومسح اعرافه من اجل انواع العبادة ، وكانوا يرون السعى على أرامل المسلمين وخدمة يتاماهم وضعفائهم تحننا وتقى ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ،

ويجهرون بكلمة الحق فى وجه الظلمة ، لا يبالون اكان الموت يسبقهـــا اليهم ام هى تسبقه فتصدع قلوبهم ، لا يرون أبدا على باب أمير أو ذى سلطان ، فاذا اضطروا الى شىء من ذلك نصحوا لله ورســـوله ، يردون هداياهم ولا يقبلون شيئا من أموالهم .

وكان فيهم الامام العادل ، والخليفة الراشد والقائد الشجاع والعالم الربانى ، والصانع الماهر ، والتاجر الصدوق ، والزارع المحسن ؛ فهـــم فى الامة روحها الذى تحيا به ، وعقلها المدبر ، وقلبها النابض بالخير وشعورها الحساس ، يستسقى الغمام بدعائهم ، ويستجلب النصر على الاعداء بأسيافهم وبركاتهم ، يقلون عند المغنم تعففا ، ويكثرون عند سماع الهيعة نجدة وشجاعة ، نفوسهم راضية ، واخلاقهم مرضية ، لا يحدثون الناس بما لا يفهمون ولا يفتونهم بأقوال لا تبلغها عقولهم ، ولا تصل اليها مداركهم ، ينطقون بالحكمة ويدعون الى الله بالموعظة الحسنة .

هم الجيل الاول من صفوة المؤمنين فى عهود صفاء الدين ، وطهارة اليقين ، ونقاء الشريعة من غلس الفلسفات الوافدة ، تحمل فى طياتهـــا العقائد النابتة فى منابت الوثنيات المفلسفة محمولة على مراكب ذوى السلطان ، وركائب السياسة التى تبطنها طوائف الطامعين الطامحين . فخاطوا قضاياها بقضايا الدين ، واحاطوا هذا الخليط المتنافر بمنطق دخيل براق استهوى بعض العقول ، فركنت الى مقاييسه ، تقيس بهـــا أمور العلم والمعرفة ومحصول الافكار ، محاولة ان تخضع لمعاييرها سنن الله فى شرائعه التى لا يستقل العقل الانسانى بمدركاتها ، بل يعجـــز هذا العقل فى بعضها عن أصل ادراكها .

ومن هنا انشعب التفكير الاسلامى :

أولا ـ الى تفكير عقلى افتتن بالعقل وعظمه جدا حتى كـــاد يؤلهه ، وسلمه مقادته ، وحكمه فى النصوص التوحيدية يتناولها اذا لم يطق فهمها ووضعوا لذلك قاعدة ادخلوها على أصول الدين فأصبحت قاعدة من قواعده: اذا تعارض النص والعقل وجب اتباع العقل وتأويل النص . ولا ندرى كيف قبل مفكرو المسلمين من الاحرار أهل الديانة والمعرفة بالله وشرائعه هذه القاعدة على اطلاقها ولماذا لم يضعوا فى مقابلها : اذا تعارض النص القطعى مع العقل وجب تعجيز العقل ، لان النص القطعى الالهى قـــد يعجز العقل عن ادراك حقيقته اليوم وتكشف له غدا ، والعقل مهما بلغ من القوة فهو محدود الغاية فى التفكير قاصر باعترافه عن ادراك كثير من الحقائق التى يعترف بوجودها ولا يدرى ـ حقيقتها .

يمثل هذا الفريق من ذوى الفكرة العقليين جدا طوائف المعـــتزلة والمتفلسفة فالعقل عند هؤلاء معصوم من الخطأ ، مطلق العنان لا يقـــف

عند جده في التفكير والحكم ، وهذا غلو مفرط كان له خطره في معركة الفكر الاسلامي ، ولا يزال هذا الخطر جاثما في أفكار المجددين المعاصرين .

ثانيا — الى تفكير نصي يلتزم حرفية النصوص ، ولا يفسرهـــا الا بالفاظها ، ويمثل هذا الفريق بعض المحدثين والفقهاء ، وهؤلاء كانهم قابلوا غلو العقليين بغلو مثله ، يقفه منه على طرف الجانب الآخر ، فاعطوا العقل حقه ، لان الله تعالى جعل العقل مناط التكليف ، فلا تكليف الا بعقل والتكليف لا يتم الا بفهم التكليف ولم يجعل الله تعالى للانسسان وسيلة لفهم شرائعه التي كلفها عباده سوى ما منحهم من عقل ، ووظيفة للعقل منها ادراكها جملة في اصولها كلها وادراكها تفصيلا في الكثير من جزئياتها ، وقد يقف في ادراك القليل منها مسلما لها ، او متوسسا الفتح بفهمها .

وهؤلاء يتفاوتون في استمساكهم بالنصية الحرفية ، فبعضهـــم يغالي جدا فلا يبيح لعقله ادنى حركة تحو فهم النص على غـــير ظاهره ، مهما كان هذا الظاهر ، ومن هؤلاء طوائف المشبهة والمجسمة وهم اشرار المفكرين ، وبعضهم يبيح لعقله ان يجوس خلال النصوص في اناة وحذر ، يتأول منها ما يخالف الاصول المتفق عليها والتي قد اوضحتها اصـــول أخرى جاء فيها صريحة ، ومن هؤلاء بعض الحنابلة وسائر الظاهرية .

ثالثا — الى تفكير لا يبخس العقل حقه من الادراك ، ويطلق له العنان في دائرة استطاعته المحدودة ، فهو في نظر هؤلاء قاصر عن الاستقلال بادراك كثير من أمور الدين الاصولية والفرعية ولكنه قادر على فهمهـــا اذا جاءته تكليفا .

ويمثل هؤلاء متكلمو أهل السنة من الاشاعرة وبعض مفكري الفقهاء الذين اضطروا الى مجابهة الفرق الاخرى من طوائف المعتزلة وغيرهم في محافل الجدل ليجادلوهم باساليبهم وقوانين منطقهم ، حفظا على عقـــائد الامة ان تشوشها شبه المتفلسفة وان يفسدها اعتساف التأويل .

وحينئذ رأى أهل العلم بالله من زهاد الامة وعبادها ان تيار الجدل الفلسفي كاد يجرف الناس ويشغلهم عن اخلاص العمل لله تعالى ، فلا بد من صيحة قوية منظمة ترد الشاردين عن حظائر المعرفة ، وترشد الحائرين الى الجادة ، وتهدي الضالين الى الصراط المستقيم ، صراط الله الذي له مافي السموات ومافي الارض ، ورأوا أنهم لا يستطيعون القيام بهـــذا الواجب الذي يحتمه داعي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر — وهو من اعظم خصائصهم — الا اذا خرجوا الى الناس من محاريبهم ، يدعونهـــم الى ربهم بأسلوب علمي منظم يجمع بين العلم والعمل ، وهذا يتطلب منهم النظر في نصوص الكتاب والسنة ، نظرا يربط كل نص بموضوعه ،

ويضعه تحت عنوانه فى بابه تبيانا لحكمته ، تقريبا للعقول والقلوب بما يشبه صنيع الفرق المتجادلة فى الزى والشكل ، وان كان يخالفه فى الحقيقة والموضوع ، بعيدين عن ميادين الجدل والمراء .

لذلك أخذ فريق من اعلامهم يضع النصوص مواضعها من حقائقها ، منبها على معانيها مشيرا الى اسرارها ، مبينا طريق العمل بها ، شارحا آثارها ، مستشهدا بمواقف السابقين من صالحى الامة فى أشباهها ، تحبيبا للعمل فى طاعة الله والاخلاص له واستمالة للقلوب ، لم يخرجوا فى كتاباتهم ومؤلفاتهم عن الزهد ، والورع،والاخلاص ، ومحاسبة النفس بأسلوب بين محكم ، لا نجد لهم كلمة موهمة ، ولا عبارة محيرة ، يكسو كلامهم نور الحق وضياء الهدى .

وكان من حملة هذا العلم المنظم فى الكتب ، المضبوط فى المؤلفات ، نقيا خالصا ، قرآنيا نبويا ابو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ، وابو سعيد الخراز ، وابو طالب المكى ، واضرابهم من سلف زهاد الامة وعبادها، وهم وان اختلفوا روحانية ونفسا وصحة فى التاليف وايراد النصوص متفقون فى الاتجاه والغاية ، ومتسلسلون فى الحياة والزمن .

لم تتركهم الفرق المتشعبة من مذاهب المنطقيين العقليين ، والنصيين الحرفيين ، والفقهاء والمتكلمين المعتدلين ، وسائر الفرق الاخرى المنحرفة عن أصول الدين ، يسيرون فى طريقهم داعين الى الله تعالى متمسكين بالدين ، لا يمارون ولا يجادلون ، ولكنهم تناولوهم بأقلامهم وألسنتهم يناقشونهم وينقدون طريقتهم ويعترضون أسلوبهم كأنهم فرقة من الفرق. وكان سلوكهم مذهبا من مذاهب التفكر الجدلى ، ولم يقصد أهل العلم بالله تعالى من الرعيل الاول بمؤلفاتهم ان يكونوا طائفة او فرقة او اصحاب مذهب من المذاهب ، يجادلون فيه ، ويناضلون عنه ، وانما كان همهم الدعوة الى الله ، وضبط ابواب العلم بالله ، والكشف عن حكم فرائضه وتعبداته ، وتحبيبها للناس ، اداء لحق الله فى نصيحة عباده .

ولهذا لم تكن لهم مؤلفات فى القرن الاول وكانت مؤلفاتهم نادرة جدا فى القرن الثانى لا تخرج عن كلمات مجموعة من أقوالهم فى مجالس تذكيرهم ، وحلقات وعظه نقلها عنهم مريدوهم وتلاميذهم ، ولم تظهر لهم مؤلفات مقصودة الوضع على نهج المؤلفين الا فى القرن الثالث الهجرى ، وهو العصر الذى احتدم فيه الجدال بين الفرق ووقعت فيه على اهل العلم بالله المحن الشداد فصبروا عليها وصابروها حتى كشف الله عنهم غمرتها وفى هذا العصر علا صوت الفلاسفة واهل الاعتزال من مؤلهى العقل على سائر الفرق ، وفيه بدأ متكلموا أهل السنة من الذين يجمعون بين النص والعقل يخوضون معهم بحار الجدل العميق بمنطقهم المتفلسف الذى يسير

على عامة الامة من أوساط العلماء فمن دونهم فهمه والاعتمـــــاد عليه في تصحيح العقائد والعمل بشرائع الله تعالى .

ويظهر انه كان في طليعة من وطدلهم قواعد التاليف المنظم الشامل في علوم الزهد والورع والاخلاص واقام لطريقتهم دعائمها ، ووطالهم سبيله الامام ابو عبد الله الحارث بن اسد المحاسبي ففي كتابه « الرعـــاية » ما يشهد بذلك فهو اول كتاب جامع لابواب السلوك العملي في اسلوب علمي على نهج الزاهدين العباد من اهل العلم بالله وكان المحاسبي معاصرا للامام احمد بن حنبل ، وكان عليما بظاهر الشريعة واصول الدين على قواعد المتكلمين وخبيرا حاذقا بعلوم المعاملات والدلالة على الله وقد رد على المبتدعة فانكر عليه الامام أحمد فقال له الحارث الرد على المبتدعة فرض فقال احمد : نعم ، ولكنك حكيت شبهتهم أولا ثم أجبت عنها ، فلم يؤمن ان يطالع الشبهة من تعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت الى الجواب او ينظر الى الجواب ولا يفهم حقيقته .

ولكن المحاسبي اتجه (بعد ان رأى أهل زمانه مضيعين لرعـــاية حقوق الله ، وهو الامر الذي تولى الله عليه أنبياءه واحباءه ، لانهـــم رعوا عهده وحفظوا وصيته) (١) الى علوم المعاملات وحمل لواء الصوفية وكانوا في عصره قد نظموا عقدهم في طائفة تدعو الى الله بالعلم والعمل ، فانكر عليه وعابهم أيضا الامام احمد بن حنبل فلما سمع منهم دون ان يشعروا استغفر الله من انكاره عليهم ، قال الشعراني في الطبقات (— قيل لاحمد ابن حنبل رضى الله عنه ان الحارث المحاسبي يتكلم في علوم الصوفية ويحتج لها بالآي والحديث ، فهل لك ان تسمع كلامه من حيث لايشعر ، فقال : نعم ، فحضر معه ليلة الى الصباح ، ولم ينكر من احواله ولا من احـوال اصحابه شيئا ، قال الامام احمد : لاني رأيتهم لما اذن بالمغرب تقـــدم فصلى ، ثم حضر الطعام فجعل يحدث اصحابه ، وهو ياكل ، وهذا من السنة ، فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم جلس اصحابه بين يديه ، وقال : من اراد منكم أن يسأل عن شيء فليسأل ، فســـألوه عن الرياء والاخلاص وعن مسائل كثيرة فأجاب عنها واستشهـــد عليه بالآي — والحديث ، فلما مر جانب من الليل أمر الحارث قارئا يقرأ فقرأ فبكـــوا وصاحوا وانتحبوا ثم سكت القارىء ، فدعا الحارث بدعوات خفاف ، ثم قام الى الصلاة ، فلما أصبحوا اعترف احمد رضى الله عنه بفضله ، وقال : كنت اسمع عن الصوفية خلاف هذا ، استغفر الله العظيم . (٢)

وكان ابو سعيد احمد بن عيسى الخراز رضى الله عنه اماما من ائمة

(١) الرعاية للمحاسبي .
(٢) الطبقات الكبرى للشعراني .

الزهاد والورع ، أهل المعرفة والعلم بالله تعالى ، وهو معاصر للامـــام المحاسبي ، فكلاهما من أئمة القرن الثالث الهجرى وقد وضع أبو سعيد في بناء الصوفية المنظمة دعامة من دعائم التأليف في علم المعاملة والسلوك .

وكتابه (الطريق الى الله) أو كتاب الصدق) على صغر حجمه آية من آيات المصنفات الصوفية ، خلع الله عليه حلية القبول ، نحسب أن قارئه لايخرج من قراءته الا على شيء من نور ربه ، وهذا من أثر الاخلاص في العلم ، وهو يدل بقرب شبه من « رعاية » المحاسبي رضى الله عنه على وحدة المسلك في صوغ الحقائق الصوفية ، مقرونة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية في أظهر دلالتها ، ومعها أقوال الصحابة والتابعين كتطبيق واقعي للنصوص ، وهذه كانت سمة « التصوف » في عصر هذين الامامين .

والحارث المحاسبي ، وأبو سعيد الخراز مثلان من أصدق الامثلة في عصرهما على الصوفية المنظمة العالية التي لم تفارق السمت الاقوم من الادب الشرعي ، والقيام بحقوق الله تعالى على دعائم الشريعة المطهرة ، على الرغم من الصوفية « تطورت » واتخذت لنفسها في القرن الثالث الهجرى كيانا خاصـــا له معالمه التي تدل عليه ويعرف بها ، واصبحت طائفة لها علومها ورسومها وسلوكها

يقول المحاسبي في كتـــابه (الوصايا) ثم انى وجـــدت باجتماع الامة في كتاب الله المنزل أن سبيل النجاة في التمسك بتقوى الله ، واداء فرائضه ، والورع في حلاله وحرامه ، وجميع حدوده : والاخلاص لله تعالى بطاعته والتأسى برسوله صلى الله عليه وسلم (١) ويقول ابوسعيد كل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل .

وقد تكررت أمثال هذه الكلمات من أكابرهم في هذا القرن الخاشد بهم ـ مما يدل على انهم شعروا ان شيئا بدأ يطرأ على نزعات بعضهم ، بفتح باب التقول عليهم بتخطى سياج الشريعة الى أمور لاتقرها نصوصها فأراد أئمتهم دفع قالة السوء عن طائفتهم ، وبيان أمرهم مشيد بالكتاب والسنة ، فكل ما يخالفهما فهو باطل ، لااعتداد به عندهم ولو صدر ممن يطير في الهواء ويمشي على الماء ، ويطوى له المكـــان وينشر له الزمان ، يقول ابو يزيد البسطامي : لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى في الهواء فلا تغتروا به تنظروا كيف تجدونه عنـــد الامر والنهى وحفظ الحدود وآداب الشريعة وروى القشيرى في الرسالة أن أبايزيد قال لبعض اصحابه : قم بنا ننظر هذا الرجل الذي قد شهـــر نفسه بالولايا ، وكان رجلا مقصودا مشهورا بالزهد ، فمضينا اليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف ابويزيد ولم يسلم عليه

(١) مقدمة الرعاية للاستاذين : عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور .

وقال : هذا رجل غير مامون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مامونا على مايدعيه ؟

ويقـــول سرى السقطى ، التصـــوف اسم لثلاث معان وهو الذى لايطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليـــه ظاهر الكتاب والسنة ولاتحمله الكرامات على هتك أسرار محارم الله .

ويقول أبو حمزه البغدادى : من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق الى الله تعالى الا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى احواله وأفعاله وأقواله .

ويقول ابو القاسم القشيرى فى الرسالة بعد ان ترجم لعـــدد من متقدميهم فى علوم المعاملات والزهد والورع ، واكثر من ذكرهم من رجـال القرن الثالث :(هذا ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة كان الغرض من ذكرهم فى هذا الموضع التنبيه على انهم كانوا مجمعين على تعظيم الشريعة متصفين بسلوك طرق الرياضة والديانة ، مقيمين على متابعـــة السنه ، غير مخلين بشىء من اداب الديانة متفقين على ان من خـــلا من المعاملات والمجاهدات ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى كان مفتريا على الله سبحانه وتعالى فيما يدعيه مفتونا ، هلك فى نفسه وأهلك من اغتر بـــه ممن ركن الى اباطيله .

ومن العجيب ان بعض هؤلاء الاكابر اصحاب هذه التحذيرات الشرعية هم من الذين نقلت عنهم كلمات يصعب فهمها على مقتضى قوانين الشريعة وأحكامها وان ابا يزيد ـ وهوصاحب ذلك الكلام المشرق بأنوار الشريعة المطهرة كان فى طليعة من نقل عنه بعض الكلمات الجامحة التى يعســـر تأويلها بوجه صحيح ، كما نقل من غيره الفاظ خارجة عن نطاق الاصول الشرعية .

ومخرج ذلك عندنا أحد أمرين ، أولهما ـ أن ذلك مما حمله عليهم من لم يرج لله فيهم وقارا ، تشويها لسلوكهم وتعويجا لطريقهم حتى ينقطع عنها السالكون . وهذا يتأيد بما صح عنهم من القول الذى نقلنا طرفا منه فى تعظيم الشريعة والتزام حدودها ، والتصريح بأن كل من خرج فى قوله أو فعله عن هذه الحدود هالك مفتون ، كما يتأيد أيضا بأفعالهم التى جعلوا سياجها تقوى الله والزهد فى مظاهر الدنيا والورع فى الحلال فضـــلا عن الحرام ، والتزام الفرائض وكثرة نوافل الخير فى آناء الليل وأطـــراف النهار ، وبعيد جدا ان يكون صاحب هذه السلوك متصنع للنـــاس يظهر خلاف مايبطن ، وهم من ذلك براء .

ثانيهما ـ ان القوم أهل رياضة ومجاهدة وتعبد ، ومناجـــاة فى

خلواتهم مع الاخلاص الكامل وفناء النفس عن رؤية عمل من أعمالها ،وان مرد الاعمال عندهم الى توفيق الله ، فهم متعرضون لنفحات الله فى سائر أوقاتهم ، ولله على عباده المتعرضين لنفحاته فيوضات من الاشراق الروحى تنزل على قلوب المخلصين ، فاذا فاجأتهم لمعات الاشراق بقوة فيضها أضعفت تحت أشعتها المرسلة من شمس التجليات الربانية ، قوة بشريتهم وأخذوا عن حقيقتهم التكليفية واندفعت السنتهم تعبر عن مشاهد الاشراق فعجزت العبارة عن الاداء فكانت منهم تلك الكلمات الجامحة فى مقياس الشريعة والعقل القاصرة فى ميزان المشاهدة والمكاشفة ٠

فعجز بشريتهم عن تحمل مباغتات الاشراق هو الذى ادى الى قصور العبارة عن أداء حقيقة المشاهدة وقصور العبارة عن ذلك الاداء هو الذى ألبسها جلباب الخروج عن جادة الاصول الشرعية ٠

ولعل هذا المعنى هو بيان مايعتذر به عنهم المعتذرون عن ان ذلك صدر عنهم فى حال سكرهم وغيبتهم عن شهود أنفسهم ٠

ولهذا لاتوجد امثال هذه الكلمات الجامحة عند أهل الصدر الاول من الصحابة والتابعين بتمكنهم من منازل الشهود وصحوهم دائما وقوة أرواحهم وصفاء بشريتهم بما كسبوه بمشاهدة انوار النبوة مباشرة كالصحابة أو بالواسطة القريبة كحال التابعين ، كبار اتباعهم ٠

وهنا نلاحظ أن الذين صبت اليهم تلك الكلمات الجامحة اكثرهم من سلالات كان لاصولها القريبة أو البعيدة نسب واسع فى العقائد الوثنية المفلسفة ، كما نلاحظ ان العصر الذى عاشه من نسبت اليهم تلك الكلمات الجامحة كان عصر تفلسف فى العقيدة الاسلامية من جانب انصارها دفاعا عنها ومن جانب خصومها افسادا لها ، فهل كان لذلك التفلسف العقيدى فى العصر الذى عاشوه أو أصالة النسب فى السلالات الوثنية المفلسفة أثر فى ذلك ؟ هذا شىء يحتاج الى بحث عميق واستقصاء بعيد المدى لم يسعفنا وقت هذا البحث بهما ونحن نميل الى تبرئة الاكابر من أئمة الصوفية فى عصرها الاول الذى استقامت فيه معانيها ، وتميزت فيه بخصائصها ، واحتفظت فيه بصفاتها التى صورها المحاسبى والخراز فى كتابيهما ، ونرى ان كل قول يخالف نصا قطعيا فى الشريعة نسب الى أحدهم هو من باب التقول ، والكذب عليهم ٠

هكذا مرت الصوفية والتصوف فى المرحلة الاولى من الحياة فى تاريخ الاسلام ، ففى القرن الاول نبتت بفرتها على أيدى الزهاد والعباد وأهل الورع والتقوى الذين أرهضت الفتن الداخلية فى الامة الاسلامية قلوبهم ، فاعتزلوها منطوين على أنفسهم ، يعبدون الله قياما بفرائضه مخلصين له الدين ، لا يريدون دنيا الناس ، ولا يزاحمونهم عليها ٠

ولما انفرط عقد القرن الاول ، ودخل القرن الثانى كانت الصوفية قد قامت على سافها غضة الاهاب ، لم تستكمل كيانها ، وبدأ اهلهـــ يتحدثون عن المراقبة والاحسان والاخلاص والتقوى ، ومحاسبة النفس ورعاية حقوق الله والصدق فى معاملته ، وبدأ الناس يرون فيهم لونا جديدا للعمل والجد فى العبادة والتجافى عن الدنيا وزخارفهـــا ، حتى أصبح لهم فى حياة المسلمين حديث يتحدث به حين حين يشيرون اليهم ، كما أصبح لهم فى حياة المسلمين حديث يتحدث الناس به حين يشيرون اليهم كما اصبح لهم كلمات خاصة تتردد فى مجالات معارفهم وعلومهم ،عرفتبهم وعرفوا بها ، ونهض جماعة من أجل علومهم ومعارفهم يقيدون أقـــوال ائمتهم ، ويرصدون كلماتهم الى جانب آى القرآن الكريم واحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة رضى الله عنهم ويجعلونها كالتفسير للقرآن والسنة على أنها من وارداتهم المستنبطة من صفاء باطنهموقيامهم على العمل بالشريعة المطهرة على قدم المراقبة والاخلاص .

ومن هنا نبع عندهم ما سموه بعلم الباطن ، وهو عند أكابرهم من السابقين ليس الا زبدة العمل بالشريعة ، وثمرة المجاهدة فى القـــيام بأوامر الله ، وبه يفسرون قوله تعـــالى (واتقـــوا الله ويعلمكم الله) والتقوى لا تتحقق الا بالعلم وهو علم الشريعة علمه الله علوما كثيرة أو أفاض عليه معارف لا نهاية لها .

ويعتبر هذا الدور دور حضانة للصوفية والتصوف ، فيه شبت على أقدام التكوين الطائفى ، وفيه تجمعت لها خصائص هيئتها الى أن تبرز فى وجود الحياة الاسلامية طائفة ذات معارف وعلوم ، وذات منطق خاص له عندها أصوله وقواعده .

ولم يكد ينصرم القرن الثانى حتى كانت الصوفية والتصوف طائفة من خلاصة المسلمين قائمة بذاتها بين الطوائف الاسلامية ،لهاخصائصها ومعالمها التى يستدل بها عليها وميزاتها التى تعرف بها ، ولها أئمتهـــا ومعارفها ، ولها مصطلحاتها فى تلك العلوم والمعارف ، ولها أئمتهـــا وروادها ، ولها حلقاتها الدراسية ، ولها كتبها ومؤلفاتها ولها حياتهـــا الخاصة التى تقوم على رياضة النفس وتهذيبها وتخليصها من عبـــودية الغرائز ، وتصفيتهـــا من كدورات الاهواء والرذائل ، ولها وراء ذلك مجاهداتها فى عبادة الله وذكره ، وتذكير عباده بآلائه ونعمه ، ليجذبوهم الى حظائر قربه ومعرفته .

وفى هذه المرحلة كان أخص ما يتحدث فيه القوم أسرار التوحيد ودلائل الربوبية ولم تخرج أحاديثهم قط عن السنن الاقوم المعتمد على الاصول الشرعية ، بيد انها كانت تخرج الى الناس بأسلوب على غير ما عهده العلماء فى الجدل المنطقى الذى كان يســـود الحياة العلمية

الاسلامية منذ القرن الثاني، بل كان أسلوبهم أسلوبا منفردا بخصائصه خلع الله عليه جلابيب القبول ، والصولة على العقول ، يفهمه من أنس به ، وينتفع به من يسلم له ، روى ان الامام أبا العباس ابن سريج اجتاز الى حلقه الجنيد ، وكان يتكلم في التوحيد ، فسمع كلامه ، فسألوه عنه ، فقال : لا أدري ما يقول ، ولكني أجد لكلامه صولة ليست بصولة مبطل.

وفي القرن الرابع كانت الصـــــوفية حقيقة كبرى من الحقائق التاريخية الوجودية في حياة المسلمين ، استكملت جميع مقوماتهـــا ، وأصبحت لها مدارسها الخاصة ، ومحافلها الخاشدة ومصطلحاتها العلمية وطرائقها في التفكير ، ومنهجها في التربية والسلوك .

وفي هـــذه الفترة من عنفوان القـرن الرابع عاش محمد بن أبي الحسن المعروف بأبي طالب المكي صاحب « قوت القلوب » وهو الكتاب العظيم الجامع لعلوم المتصوفة وأحـــوالهم ومقاماتهم ، وهو دائرة معارف لهم ، ومصدر من أوسع مصادرهم ، عرض فيه أبو طالب منهج الصوفية العلمي وأبان عن سلوكهم ، ورسوخهم في المعارف الربانية ، وطريقـــة فهمهم للنصـــــوص الشرعية من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية حريصا على ان يجعل من أقوال العلماء والائمة في فهم هذه النصـــوص وسيلة لتقريب فهم الصوفية الى الناس أو ليجعل فهم الصوفية في النصوص متمشيا مع آراء علماء الشريعة الذين ســـاهم أبو طالب علماء الظـاهر وجعل علمهم علم الظاهر ، وعلم الصوفية علم الباطن وربط بين العلمين ربطا جعل احدهما لا يستغنى عن الآخر مع تفضيل علم الباطن ورفع درجته على علم الظاهر فيقول : ولعمري ان الظاهـــــر والباطن علمان لايستغنى احدهما عن صاحبه بمنزلة الاسلام والايمـــان ، مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما على صاحبه .

وهذا هو الامتياز الذي اتخذه المتصوفة خصيصتهم بين علمـــاء الاسلام ، وهو الذي يدندنون حوله ، وهو الذي فتح لمتأخريهم ابواب التوسع في معاني النصوص توسعا يخرجها عن حقائقها الشرعية ، فاذا عورضوا بمدلولات الالفاظ وأوضاعها اللغوية والشرعية قالوا : هيهات فهيهات هذه المدلولات والاوضاع اللغوية والشرعية هي من علم الظاهر الذي يكلف به العامة ، وهناك وراء هذه المدلولات والاوضاع علم الباطن الذي هو ثمرة الفتح الناشيء عن المعرفة وصدق المعاملة مع الله ســـبحانه ، ويستدلون بحديث (من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم .)

وأبو طالب المكي وان كان مسبوقا بها الاتجاه الصوفي لكنه يعتبر أول من وضعه وضعـــا علميا يحتج له بالنصـــوص وأقوال الائمة من علماء الشريعة . ولهذا كان كتابه (القوت) من أهم مصادر الصوفية المحافظين

ونحن نسوق مثلا من كتابه على اتجاهه هذا ليتبين حظ هذا الامام من تاسيس التصوف تاسيسا علميا ، وهذا التاسيس اعلمى مرحلة ثانية من مراحل التصوف ، وهى أهم واعظم مراحله ، وعليها بنى كل من جاء بعده ، وهى الطريقة التى تبطنها الامام الغزالى فى كتابه «الاحياء» مقاربا محافظا على أصول الشريعة وفروعها .

قال أبو طالب فى شرح قوله صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم) : (قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله : أراد بذلك علم حال ، يعنى علم حال العبد من مقامه الذى أقيم فيه ، بأن يعلم أحدكم حاله الذى بينه وبين الله عز وجل فى دنياه وآخرته خاصة ، فيقوم بأحكام الله تعالى عليه فى ذلك .

وقال بعض العارفين : معناه طلب علم المعرفة ، وقيام العبد بحكم ساعته وما يقتضى منه فى كل ساعة من نهاره .

وقال بعض علماء الشام : انما عنى به طلب علم الاخلاص ومعرفة آفات النفس ووساوسها ، ومعرفة مكايد العدو وخدعه وغروره . وما يصلح الاعمال ويفسدها ، فريضه كله من حيث كان الاخلاص فى الاعمال فريضة ، ومن حيث أعلم بعداوة ابليس ، ثم أمر بمعاداته ، وذهب الى هذا القول عبد الرحيم بن يحيى الارموى ومن تابعه .

وقال بعض البصريين فى معناه : طلب علم القلوب ومعرفة الخواطر وتفصيلها فريضة . لانها رسل الله الى العبد ، ووسواس العدو والنفس ، فيستجيب لله تعالى بتنقية ما منه اليه ، ومنها ابتلاء الله تعالى للعبد واختبار تقتضيه مجاهدة نفسه فى تميزها ، ولانها أول النية التى هى أول كل عمل ، ومنها تظهر الاعمال ، وعلى قدرها تضاعف الاعمال فيحتاج أن يفرق بين لمة الملك ولمة العدو ، وبين خاطر الروح ووسوسة النفس وبين علم اليقين وقوادح العقل فيميز بذلك الاحكام وهذا عند هؤلاء فريضة ، وهو مذهب مالك بن دينار ، وفرقد السنجى ، وعبد الواحد بن زيد واتباعهم من النساك ، وقد كان استاذهم الحسن البصرى يتكلم فى ذلك ، وعنده علم القلوب .

وقال عباد أهل الشام : معناه طلب علم الحلال فريضة ، اذ قد أمر الله تعالى به ، وأجمع المسلمون على تفسيق آكل الحرام ، وقد جاء فى حديث مفسر : « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » ومال الى هذا القول ابراهيم بن أدهم ، وبوسف بن أسباط ووهيب بن الورد ، وحبيب بن حرب .

وقال هذه الطائفة من أهل المعرفة : معناه طلب علم البيان

فريضة على أهله ، قالوا : وهذا مخصوص لاهل القلوب ممن استعمل منه ، واقتضى منه مدة دون غيره من عوام المسلمين ، ولانه جاء فى لفظ الحديث: (تعلموا اليقين) فمعناه علم اليقين ؛ وعلم اليقين لايوجد الا عند الموقنين ، وهو من أعمال الموقنين المخصوص فى قلوب العارفين ، وهو العلم النافع الذى هو حال العبد عند الله تعالى ومقامه من الله تعالى كما شهد له الخبر الآخر فى قوله صلى الله عليه وسلم : « وعلم باطن فى القلب ، وهو العلم النافع » فهذا تفسير ما اجمل فى غيره .

وقال جندب : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلمنا الايمان ، ثم يعلمنا القرآن فازددنا ايمانا ، وسيأتى زمان قوم يتعلمون القرآن قبل الايمان ، يعنى تعلمنا علم الايمـــان ، وهذا مذهب نساك أهل البصرة .

وقال بعض السلف : انما معناه طلب علم ما لم يسع جهله من علم التوحيد ، وأصول الامر والنهى والفرق بين الحلال والحرام اذ لا غاية لسائر العلوم بعد ذلك .

وكلها يقع عليه اسم علم من حيث هى معلومات ، ثم قـــد اجمعوا ان ليس تعليم ما زاد على ما ذكرناه فرضا ، وانما فيه فضـــل او ندب .

وقال بعض فقهاء الكوفة : معناه طلب البيع والشراء ، والنكـــاح والطلاق إذا أراد الدخول فيه افترض عليه من دخوله فى ذلك طلب علمه لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا يتجر فى سوقنا هذا الا من تفقه ، والا أكل الربا ، شاء أم أبى ، وكما قيل تفقه ثم اتجر ، وقال لى هذا سفيان الثورى وأبو حنيفة وأصحابهما .

وقال بعض المتقدمين من علماء خراسان : هو أن يكون الرجـــل فى منزله فيريد أن يعمل شيئا من أمر الدين ، أو يخطر على قلبه مسألة لله سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبد ، وعلى العبد فى ذلك اعتقـــاد او عمل فلا يسعه أن يسكت على ذلك ، ولا يجوز له أن يعمل فيه برأيه ولا يحكم بهواه ، فعليه أن يلبس نعليه ويخـــرج فيسأل عن أعلم أهل بلـــده فيسأله عن ذلك عند النازلة ، فهذا فريضة ، وحكى هذا القول عن ابن المبارك وبعض أصحاب الحديث .

وقال آخرون : يعنى طلب علم التوحيد فرض ، وانما اختلفوا فى كيفية الطلب وماهية الاصابة ، فمنهم من قال : من طريق الاستدلال والاعتبار ، ومنهم من قال : من طريق البحث والنظر ، ومنهم من قال : من طريق التوفيق والاثر .

وقالت طائفة من هؤلاء : انما أراد طلب علم الشبهات والمشكلات

اذا سمعها العبد وابتلى بها ، وقد كان يسعه ترك الطلب اذا كان غافلا عنها على أصل التسليم ومعتقد جملة المسلمين ، لا يقع في وهمه ولا يحيك في صدره شيء من الشبهات فيسعه ترك البحث ، فاذا وقع في سمعه شيء من ذلك ووقر في قلبه ولم يكن عنده تفصيل ذلك وقطعه ومعرفة تمييز حقه من باطله لم يحل له أن يسكت عليه لئلا يعتقد باطلا أو ينفي حقا فافترض عليه طلب ذلك من العلماء به فيستكشفه حتى يكون على اليقين من أمره ، فيعتقد من ذلك الحق وينفي الباطل ، ولا يقعد عن الطلب فيكون مقيما على شبهة ويتبع الهوى ، أو يكون شاكا في الدين فيعدل عن طريق المؤمنين ، أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السنة ومذهب الجماعة وهو لا يعلم ، ولهذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في دعائه : اللهم أرنا الحق حقا فنتبعه وارنا الباطل باطلا فنجتنبه ، ولا تجعل ذلك مشتبها علينا فنتبع الهوى • وهذا مذهب ابي ثور ابراهيم بن خالد الكلبي ، وداود بن علي والحسين الكرابيسي، والحارث بن أسد المحاسبي ، ومن تابعهم من المتكلمين •

قال أبو طالب رحمه الله بعد أن ساق ما تقدم : فهذه أقوال العلماء في معنى هذا الخبر ، حكينا ذلك عن علمنا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة ، واحتججنا لكل قول ، فالالفاظ لنا ، والمعنى لهم ، وهذا كله حسن ومحتمل ، وهؤلاء كلهم وان اختلفوا في تفسير الحديث بالفاظ ، فانهم متقاربون في المعنى الا أهل الظاهر منهم ، فانهم حملوه على ما يعلمونه ، وأهل الباطن تأولوه على علمهم ، ولعمري أن الظاهر والباطن علمان لا يستغنى احدهما عن صاحبه بمنزلة الاسلام والايمان، مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب ، لا ينفك أحدهما عن صاحبه

ثم قال أبو طالب : والذي عندنا في حقيقة معنى هذا الخبر – والله أعلم – أن قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة • يعنى علم هذه الفرائض الخمس التي بنى عليها الاسلام من حيث لم يفترض على المسلمين غيرها ، ثم أن العمل لا يصح الا بعلمه ، فأول العمل العلم به ، فصار علم العمل فرضا من حيث افترض العمل •

ثم ذهب يفصل القول في ادخال جميع الاقوال المعتبرة عند علماء الشرع من الفقهاء والمحدثين ، وعند علماء علم القلوب والخواطر واليقين من المتصوفة في عموم القول الذي اختاره ، وهذا حسن بيد أنه اخراج الحديث عن عمومه المقصود بدلالة ما أورده أبو طالب من النصوص الخاصة في بعض العلوم ، وادخال اصحابها لها تحت مفهوم العموم من الحديث •

ومن حق هذا البحث أن يفهم هذا الحديث الدائر على السنة

العلماء ، الذي يعتبرونه سندا قويا في نصوص الاسلام على حبه لعلم والمعرفة ، وتقديرهما حق قدرهما وأعظامهما والحث عليهما ، أنه – كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم – على عمومه في سائر أنواع العلم والمعرفة ، والمخاطب به الامة كلها ، فلا يخرج عنه علم من العلوم ، ولا باب من أبواب المعرفة ، ولا ينبغي قصره على شيء منها دون غيره وفرض الكفاية باق على فرضيته بالنسبة لعموم الامة ، وفرض الاعيان متوجه على الافراد والذوات المكلفين في ضمن عموم خطاب الامة .

وفي ايراد هذا الحديث بنصه الذي أورده به أبو طالب رحمه الله دقة حديثية تثنى للامام أبي طالب ، حيث رواه مقطوعا عما زاده فيسه بعض المتأخرين ممن لم يتمرس على النظر في أحاديث رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم من كلمة (ومسلمة) وهـــو بنصه الصحيح كما رواه الثقاة ، وكما ذكره في « القوت » لا حاجة به الى هـــذه الزيادة ، لانه جرى على سنن النصوص العامة التي ترد بلفظ التذكير ، ويراد بها ما يعم الرجال والنساء في التكليف باعتبار ان التكاليف يستوى بين الرجـــال والنساء ولا يفرق بينهم ، والنساء شقائق الرجال في جميع الاحكام الا ما خصه الدليل بالنص ، أو بطبيعة الخلقة الالهية والتكوين الرباني .

فانظر الى هذا الامام العالم الصوفي « المتفقه الرباني كيف أدار الحديث في بيان معنى الحديث المشهور المتعالم بين العلماء ، وكيف عرض في تفسير معناه أقوال العلماء من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والنساك المتعبدين أرباب علم القلوب ، بل كيف أدخل في معنـــاه خطرات بعض المتصوفة وسبحاتهم البعيدة الاحتمال عن معنى الحديث ، وجعل تلك الخطرات معنى محتملا في جملة ما يحتمله الحديث من التفسير والمعنى ، وانظر اليه كيف استدل لكل قول بنصوص من الاحاديث وأقوال اكابر الصحابة رضوان الله عليهم التي وردت في تلك المعاني الخاصة بمحـــل ورودها ، حتى المعاني التي نحانحوها المتصوفة استدل لها بنصـــوص خاصة في معانيها ، وهذه النصوص الخاصة مشهورة عنـــدهم متداولة بينهم ، ولكنها لا ترتفع الى درجة حديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم)

فأبو طالب المكي رحمه الله تعالى يريد من هذا الاتجاه العلمي في كتابـــه أن يفهم قارئوه من سائر الطوائف والمـــذاهب أن (المتصوفة) لا يذهبون في فهم النصوص فهما لا تحتمله معانيها ، فهم وان قـــــالوا بعلم الباطن في تفسير النصوص فانهم لا يخرجون بباطنهم عن مؤاخاة علم الظاهر .

وذلك هو ما قصـــدناه بقولنا : ان أبا طالب المكي أسس بكتابه

« القرن » التصوف تأسيسا علميا ابتدأت به المرحلة الثانية من مراحل « التصوف » .

جاء بعد أبي طالب المكي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري الامام زين الاسلام أبو القاسم القشيري وكان من أئمة المسلمين في الفقه وأصوله ، وأصول الدين وطرائق المتكلمين ، وله في الحديث ورواياته مكان لا يقتحم ، وفي التفسير مقام لا يهدم وفي الادب وبراعه البيان كان آية من آيات الفصحى ، وكان في حدة الذكاء وقوة الحافظة مثلا مضروبا ، روى أنه اختلف الى درس الاستاذ الامام ابي اسحاق الاسفراييني ، وسمع دروسه في جملة أيام ، فقال له الاستاذ : هذا العلم لا يحصل بالسماع ، فأعاد على الامام جميع ما سمعه منه في سائر الايام التي حضرها مع الضبط وحسن التقرير ، فتعجب منه أبو اسحاق وقال له : ما كنت أدري انك بلغت هذا المحل ، فلست تحتاج الى دروسي يكفيك أن تطالع مصنفاتي ، وتنظر في طريقي ، فان اشكل عليك شيء طالعتني به .

وكان من حسن موافقات الاقدار الالهية لابي القاسم القشيري أن جمعه الله على الشيخ أبي علي الدقاق ، وهو امام وقته في علم المعاملات والخواطر وكان لسان الصوفية الناطق بعلومها في عصره ، حضر القشيري مجالسه وسمع منه ، فأعجبه ولازمه ورأى الدقاق نجابته فأرشده الى الاشتغال بالعلم ، فاشتغل به وحضر دروس الائمة من أضراب أبي بكر الطوسي ، وابن فورك والاسفراييني وقرأ كتاب الباقلاني حتى برع في الفنون الشرعية والعقيدية والعربية ، ولم ينقطع عن مجالس الدقاق الذي حذق عليه علم القلوب ، وتمرس على اشارات الصوفية ولوامع خواطرهم بعد طول الرياضة والمجاهدة حتى أصبحت احوال الصوفية خلقا له وفطرة مع نضجه في سائر العلوم ، وقد ألف في كل فن كان في عصره معروفا في العلوم الشرعية والادبية مؤلفات اشتهرت بين العلماء في الشرق والغرب — ومن أشهرها تفسيره المقرآن الحكيم ، الذي يعد مرجعا من المراجع الاصلية لكافة المفسرين الذين جاءوا بعده .

ولما أحكم أبو القاسم القشيري طريق القوم على يد استاذه الدقاق سلك بعد وفاته مسلك الرياضة والمجاهدة والتجريد ، ووضع في « التصوف » رسالته التي اشتهرت في مشارق الارض ومغاربها حتى جاوزت شهرتها بلاد الاسلام ، وقد سلك فيها أبو القاسم مسلكا صوفيا بحتا — وهو يقول في مقدمتها : انه كتبها الى جماعة الصوفية ببلدان الاسلام ، ثم أخذ يذكر نعوت طائفة الصوفية الذين مضوا قبل عصره ذلك الذي امتحن فيه أكابر العلماء من أهل السنة ، وفي مقدمتهم صاحب

الرسالة فقال : (جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصهم من بين الامة بطوالع أنواره ، فهم الغيبات المخلق ، والدائرون فى عموم احوالهم مع الحق بالحق ، صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم الى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الاحدية ، ووفقهم للقيام بآداب العبودية ، واشهدهم مجارى احكام الربوبيـــة ، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف ، ثم رجعوا الى الله تعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار ، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الاعمال ، أو صفا لهم من الاحوال ، علمـــا منهم بانه جل وعلا يفعل مايريد ، ويختار ما يشـاء من العبيد ، لا يحكم عليه خلق ولا يتوجه عليه لمخلوق حق ، ثوابه ابتداء فضل ، وعذابه حكم عدل ، وأمره قضاء فصل) .

ثم أخذ ابو القاسم يذكر ما أصاب هذه الطائفة فى عصره من انقراض محققيهم وخلو البلاد منهم ، وسوء حال المدعين لطريقتهم ، واستفحال فسادهم حتى ادعى من ادعى منهم أنهم (تحرروا عن رق الاغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه ، وهم محو : وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كشـــفوا بأسرار الاحدية واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت احكام البشرية ، وبقوا بعد فنائهم بأنوار الصمدية ، والقائل عنهم غيرهم اذا انطقوا ، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا ، بل صرفوا) .

وهذا اشارة الى مذهب نحلة ضالة ادعت التصوف لتتستر به ، وهم اباحيون ، يسقطون التكاليف ، وهم الذين قال فيهم الجنيد رضى الله عنه : ان من يسرق ويزنى خير من هؤلاء وهذه الاشارة من ابى القاسم القشيرى تدل على ما دخل على الصوفية من تلاعب وفساد على يد بعض الطوائف الضالة من الباطنيه .

ثم ذكر أبو القاسم انه أشفق على القلوب ان تفشل القصد فى حق التصوف والمتصوفين فتحسب ان امر هذه الطائفة بنى قواعده على هذه الجملة التى حكاها عن أهل الضلالة ، فعلق (هذه الرسالة ، وذكر فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم واخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم ، وما أشاروا اليه من مواجيدهم ، وكيفية ترقيهم من بدايتهم الى نهايتهم لتكون لمريدى هذه الطريقة قوة) .

والقشيرى رحمة الله تعالى قد نقل « التصوف » برسالته نقلة كبرى لانه أجرى الحديث فى فصولها وموضوعاتها بطريقة صوفية بحتة ، لم يسلك فيها مسلك المحاسبى فى (الرعاية) بل ولا مسلك أبى طالب المكى فى (القوت) من حيث مزج النصوص الشرعية بأقوال الصوفية وآدابهم فى

ثنايا الابواب والفصول ، بل يكتفى فى الاعم الاغلب بايراد بعض النصوص من الآى أو الاحاديث النبوية فى أوائل الابواب ثم ينفلت مسرعا الى أقوال الصوفية يشرح بها مايريد من الفاظهم .

وخصص ابو القاسم رحمه الله تعالى بابا من رسالته لذكر مصطلحات القوم فى أحوالهم ومقاماتهم بألفاظهم التى تدور على السنتهم ، وخصص كل لفظ بفصل مستقل ، لتفسيره وبيان معناه بأقوال أكابرهم .

وقد ترجم فى باب من ابواب الرسالة لبعض شيوخهم ، ثم أخذ فى شرح تلك الالفاظ التى يعبرون بها عن معان يحسونها بقلوبهم وعقولهم ووجداناتهم فيذكر أبو القاسم : الوقت ، والمقام ، والحـــال ، والقبض والبسط ، والهيبة والانس ، والتواجد ، والوجد والوجود والجمع والفرق وجمع الجمع والفناء ، والبقاء ، والشريعة والحقيقة وغير ذلك من الفاظهم التى يقصدون بها الى معان لا يعرفها غيرهم ولا يقول بها سواهم .

وذكر أبو القاسم رحمه الله فى باب (حفظ قلوب الشيوخ وترك الخلاف عليهم) أمورا يتوقف فى قبولها أهل الشرع ، ولا يرضـــاها العقليون ، وساق فى مطلع هذا الباب قصة موسى والخضر عليهما السلام لبيان مايلزم من أدب الصحبة بين العلماء بالله ، وليس هذا من قبيل اعتماد كافة متأخرى المتصوفة على هذه القصة فى مسألة علم الظاهر والباطن ، ومسألة الحقية والشريعة عندهم .

والقصة ـ كما جاءت فى القرآن الكريم وصحيح الحديث ـ لاتستدل فيها لشىء من ذلك ، لانها وردت على سبب معين ، كما فى حديث البخارى ومسلم (ان موسى عليه السلام قام خطيبا فى بنى اسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا : فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم اليه ، فأوحى الله اليه ، ان لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك) واستدل موسى عليه السلام ربه على مكان هذا العبد الاعلم منه ، ليتعلم منه مما علمه الله ، فدله الله عليه ، وذهب اليه موسى عليه السلام ، وجرت الحوادث الخاصة التى كان العبد العليم يعلم حكمها بتعليم الله ووحيه ، ولم يكن موسى نبيه السلام على علم بأحكامها ، لان الله لم يعلمه بها بوحيه ، اذ لم تكن نوازلها واحداثها مما يحتاج الى علم الحكم فيها ، لانها لم تقع فى قومه ولو احتاج اليه لوقوعها لوجب ان يكون على علم بها أداء لحق الرســـالة والنبوة .

ولذلك قال العلماء بالقرآن والسنة : ان معنى قوله : هو أعلم منك ، أى ـ بأحكام وقائع مفصلة وحكم نوازل معينة ، لامطلقا فى جميع العلم والمسائل ، بدليل قول العبد العليم لموسى : (انك على علم علمكه الله لا

أعلمه أنا ، وانا على علم علمنيه الله لاتعلمه انت) وهذا صريح فى ان كل واحد منهما كان اعلم من صاحبه بالنسبة الى مايعلمه بوحى الله اليه ولا يعلمه الآخر ، لان الله تعالى لم يأمره به ؟ كما يشـــير الى ذلك قوله (وما فعلته عن أمرى) .

وهذا شبيه بما ورد فى قصة داود وسليمان عليهما الســـلام فى قوله تعالى (وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشـــت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما)قال العلماء بالقرآن والسنة : كان داود وسليمان عليهما السلام نبيين يقضيان بما يوحى اليهما ، فحكم داود بوحى ، وحكم سليمان بوحى ؛ وكلا حكميهما صحيح ، لان حكم سليمان كان أرفق بالقوم ، ولذلك أثنى الله عليهما فى نسق واحد فقال : (وكلا آتينا حكما وعلما) ولو كان حكم داود خطا لما اثنى الله عليه مع سليمان باعطائه الحكم والعلم معا كما أعطاهما لسليمان .

ومن هذا الباب حديث أبي هريره عند مسلم ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : (بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بأبن احداهما، فقالت هذه لصاحبتها : انما ذهب بابنك انت ، وقالت الاخرى : انما ذهب بابنك ، فتحاكما الى داود ، فقضى به للكبرى ؛ فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام ، فأخبرتاه ، فقال : ائتوني بالسكين اشقه بينكما: فقالت الصغرى ، لا ، يرحمك الله ، هو ابنها ؛ فقضى به للصغرى) فحكم داود عليه صحيح باعتبار التشريع العام والاخـــذ بالقرائن والامارات الظاهرة ؛ وحكم سليمان صحيح باعتبار هذه النازلة التى ظهر له فيها صدق الصغرى فحكم لها به تغليبا لقرائنها وامارانها على قرائن وأمارات الكبرى .

وفى قضية موسى عليه السلام كان العبد العليم يحكم نوازله الخاصة نبيا يوحى اليه بدليل قوله فى آخر القصة (وما فعلته عن أمرى) ولا مانع أن يكون عند أحد الانبياء ــ الموجودين فى زمان واحد علم باحكام حوادث تقع فى قومه ليس هذا العلم عند غيره من الانبياء الذين لايحتاجون فى قومهم الى حكم هذه النوازل بعينها .

ويستحيل ان يكون غير النبى أعلم من النبى لمـــا يؤديه ذلك الى الطعن فى مقام النبوة ، وهو أعلى مقامات البشر عند الله تعالى ، فلا تعلق لغير الراسخين من القوم ولا سند لهم فى هذه القصة التى يتشبثون بها فى حكاية الظاهر والباطن ، والحقيقة والشريعة ، وكل ماجرى فى القصة هو من العلم الشرعى الذى علمه الله لعبده العليم بوحى منه تعالى ، ولم يعلمه موسى عليه السلام ، لانه لم يحتج اليه فى قومه ، ولو احتاج اليه موسى فى قومه لوجب ان يكون على علم به من الله تعالى .

ولم يؤثر عن أحد من الصحابة والتابعين وأكابر الائمة والراسخين من أهل العلم بالله قول بخلاف ذلك ، وانما كانت هذه الظاهرة عند المتشبهين بالمتصوفة من العاطلين عن حلى الاخلاص والمراقبة .

وأبو القاسم رحمه الله يروى فى هذا الباب عن أبى عبد الرحمن السلمى انه قال : خرجت الى مرو فى حياة شيخى الاستاذ أبى سهل الصعلوكى ، وكان له قبل خروجى أيام الجمعة بالغدوات مجلس دور القرآن والختم فوجدته عند رجوعى قد رفع ذلك المجلس ، وعقد لابى الغفانى فى ذلك الوقت مجلس لقول — أى السماع — فداخلنى من ذلك شيء ، فكنت اقول فى نفسى : قد استبدل مجلس الختم بمجلس القول ، فقال لى يوما : ياأبا عبد الرحمن ايش يقول الناس فى ؟ فقلت : يقولون: رفع مجلس القرآن ووضع مجلس القول ، فقال : من قال لاستاذه : لم لايفلح أبدا .

هذه الحكاية وأمثالها يجرى مافيها عند متأخرى المتصوفة مجرى القانون الحتمى الذى لا تصح مخالفته فيما بين الاستاذ ومريديه ، وليس من حق التلميذ والمريد عندهم أن يقول لاستاذه : لم فعلت ؟ ولا لم تركت ؟ ولو رأى منه المخالفة الظاهرة لاوامر الشرع ونواهيه ، وبعض مؤلفيهم يبرزه فى صياغة يجعلها من أدب المريد والتلميذ مع استاذه فيقولون فى أدب الطريق : يجب على المريد ان يكون مع شيخه كالميت بين يدى الغاسل لا ارادة له معه .

وهذا أمر خطير فى دين الاسلام ، يفتح أبواب تعطيل الشريعة أمام من لم ترسخ قدمه فى معرفة الله تعالى ، ويؤدى الى عدم احتشام الاحكام واحترامها ، والى الاستهتار بها تحت ستار الاستاذية والمريدية ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والخلفاء الراشدون يقول كل واحد منهم لرعيته : أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم وعمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه ، فيقوم اليه رجل من عرض الصفوف ، ويقول له : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فيحمد الله تعالى عمر على أن جعل فى رعيته من رزق من شجاعة النفس وقوة الدين، فيقوم اعوجاج خليفته بسيفه .

والامة مجمعة على أن شرعة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر لاتبطل بالاستاذية والتلمذة ، فالحكم على المريد الذى يقول لشيخه : لم ؟ استطلاعا لوجه الامر فعل لم يفهم وجهه ، أو انكارا لعمل من الاعمال رآه التلميذ مخالفا لقواعد الشرع وأحكامه ، بانه لا يفلح حكم لا يقره الشرع ولا

يرقباه العقل ، ويتنافى مع التربية الاسلامية التى توجب شجاعة النفس وجرأة القلب فى الحق .

والمعروف فى أدب الارشاد الشرعى أن يترك للتلميذ فرصة ليفهم لما يرى ويسمع ، ثم يسمح منه بصدر رحب ما يعتلج فى نفسه ليرشده الى الصواب ان أخطأ ، ويقوم اذا اعوج .

ويجب فى هذا المقام أن يفرق بين السائل ليفهم ، ويذهب وغر صدره ، وبين السائل تعنتا أو تنقصا ، فحق الاول رحابة الصدر والارشاد والتفهيم والصبر على معالجته ، وحق الثانى الادب ، كما يجب التفريق بين انكار الامور التى لها مخارج من الشريعة ، والامور التى لا مخرج لها فى مذاهب العلماء ، فحق الاولى بيان مخارجها وحق الثانية التسليم لمن أنكر عليها .

ويحكى القشيرى فى هذا الباب عن شقيق البلخى وأبا تراب النخشبى قدما على أبى يزيد البسطامى رضى الله عنهم ، فقدمت السفرة وشاب يخدم أبا يزيد ، فقالا له : كل معنا يا فتى ، فقال : انا صائم : فقال أبو تراب : كل ولك أجر صوم شهر ، فأبى ؛ فقال شقيق : كل ولك أجر صوم سنة ، فأبى ، فقال أبو يزيد : دعوا من سقط من عين الله تعالى ، فأخذ ذلك الشاب فى السرقة بعد سنة فقطعت يده .

وهذه الحكاية من جنس ما تقدم ، بل أشد ، لان أهل الله قلوبهم مشغولة بالله تعالى ، مليئة برحمته ولطفه بخلقه ، فهذا الشاب صائم متلبس بعبادة الله تعالى ، دعى الى ابطالها ومشاركة الاشياخ طعامهم وهو شرف لهذا المريد ، ولكنه رأى أن يختار رضاء الله تعالى بالاستمرار فى عبادته على هذا الشرف ، فما كان يضر هذه الحكاية لو جعلت هذا الشاب من أبطال أهل الله الذين يؤثرون الله على خلقه ويؤثرونه على شهواتهم ؟ وماكان يضر هذه الحكاية لو أنها جعلت مكان سخط الاشياخ على شاب يخدم أحدهم دعوات له بالتوفيق يجذبه الى الاخذ فى رفيع الطاعة بديلا عن الاخذ فى السرقة التى قطعت يده فيها ؟ وأصبح مقصيا من حظيرة أصحاب القلوب الرحيمة ؟

وأبو القاسم رحمه الله تعالى يجعل من الصوفية مذهبا يجب على المريدين أتباعه وعدم الالتفات الى غيره من المذاهب الشرعية فيقول : (ويقبح بالمريد أن ينتسب الى مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقة ، وليس انتساب الصوفى الى مذهب من مذاهب المختلفين سوى طريقة الصوفية الا نتيجة جهلهم بمذاهب أهل هذه الطريقة ، فان هؤلاء حجبهم فى مسائلهم أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذهبهم أقوى من

قواعد كل مذهب . والناس اما أصحاب العقل والاثر واما أرباب الفضل والفكر وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة ، فالذى للناس غيب فهو بهم ظهور ، والذى للخلق من المعارف مقصود فلهم من الله سبحانه موجود . فانهم أهل الوصال والناس أهل الاستدلال) .

وهذا عجيب جدا ، فأين عمل العقل فى تأسيس العقيدة وتصحيحها وتنقيتها من غلس الاباطيل ، وحمايتها من الشبه والاضاليل ؟

وهل يمكن لكل مريد أن يصل باقتصاره على مذهب المتصوفة وعدم نظره فى مذاهب الفقه والكلام ان يعرف أحكام النوازل فى العبادات والمعاملات ، وأن يحمى عقيدته من تشويش أهل البدع والضلال ؟

وأين عمل الاجتهاد والاستنباط من القرآن والسنة الذى كان طريق الصحابة وطريق التابعين من الفقهاء والمحدثين والمفسرين من أئمة الهدى والذين قبل ظهور المتصوفة والتصوف ؟

وهل كان أبو على الدقاق ، وهو الامام الصوفى الراسخ فى العلم والعمل ، شيخ أبى القاسم ومربيه على طريقة القوم حينما أرشده الى الاشتغال بالعلم فى مطلع حياته يقصد بالعلم غير دراسة مذاهب العلماء فى علوم الشريعة النقلية والعقلية من الفقه والحديث والتفسير والكلام ، وهى العلوم التى نبغ فيها أبو القاسم القشيرى ، وخلف فى موضوعاتها للعالم الاسلامى مصنفات تعد بين العلماء مراجع لها المكان المرموق من الاعتبار والتقدير ؟

وهل كان هذا الامام المتصوف الضليع فى طريق القلوب ــ وهو يشهد تلميذه أبو القاسم يتردد بين مجلسه ومجالس أئمة وقته فى علوم الشريعة من اضراب الاسفراييني والطوسى ، وابن فورك غير ناصح لمريده وتلميذه ؟

كلا ، لا هذا ، ولا ذاك ؛ وانما هو حكم العصر والبيئة والمجتمع ؛ عصر أبى القاسم القشيرى ، ومجتمع الاسلام فى ذلك العصر ، هو الذى دفع أبا القاسم الى أن يكتب هذا فى رسالته نصيحة لمريدى المتصوفة ، وخشية عليهم أن تتخطفهم ذئاب الجدال والمراء من طوائف الابتداع والتفلسف ، وخشية أن يقضى عليهم فراغ القلوب من تقوى الله وخشيته بالاشتغال بتفريغ مسائل الفقه الذى لم تقع نوازلها فى الحياة ؛ وهو عصر شهد فيه أبو القاسم شدائد المحن والبلايا التى حملته وحملت كثيرا من أئمة وقته على الهجرة الى المجاورة بمكة المكرمة حتى كشف الله عن المسلمين تلك الغمة وعاد الائمة الى ديارهم ومدارسهم .

هؤلاء الائمة الاربعة الذين تحدثنا عنهم وعن كتبهم فى هذا الفصل ،

وجعلناهم مرآة لانعكاس أطوار « التصوف » التاريخية في الاسلام هم الذين وضعوا « التصوف » موضعه من التاريخ في الاسلام ، وهم الذين تدرجوا به الى أطواره من مهده الى أن شب واستوى مذهبا من مذاهب التفكير في الاسلام .

فالمحاسبي رحمه الله تعالى امام من أئمة الاسلام ومتكلم من متكلميه الذين نهضوا للرد على أهل الابتداع ، كتب للامة آداب الزهاد والنساك وما يجب أن يكون عليه العبد في رعاية حقوق الله ، مستمدا ذلك من الكتاب والسنة وفهم الائمة من الصحابة والتابعين وسلوكهم في الاخلاص والعمل ليبعل مما كتب نواة لجذب الناس الى منازل الاخلاص وتصفية القلوب ، معتمدا على علمه بالشريعة أصولها وفروعها وتطبيقها ، ولم يكن للتصوف ولا للمتصوفة في عصره وجود مذهبي خاص يقصد الى تصويره والتحدث عنه ، ومن هنا وشهرته في الرد على المبتدعة ذكره أبو طالب المكي من بين المتكلمين ؛ ولم يره من علمائهم علماء الباطن .

وأبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى امام من أئمة المتصوفة ، عليم بالشريعة وآدابها ، كتب للناس آداب المتصوفة وهي في مهدها لم تستكمل شخصيتها الاستقلالية فهي تعيش مع الفقهاء في مذاهبهم ومع المتكلمين في طرائقهم الاولى قبل منطق الفلسفة ومع المحدثين في سلوكهم ، ومع المفسرين في اتجاهاتهم ، ولكنها مع ذلك ليست مغمورة المعالم بينهم . بل كان لها سماتها في التطبيق والعمل ، والتنسك والتعبد .

ولذلك كانت كتابة أبي سعيد رضي الله عنه مزيجا من مصادر الشريعة الصافية ، مجملة بشواهد التطبيق العملي في دائرة صدق المراقبة والاخلاص .

وأبو طالب المكي رحمه الله تعالى كان عليما بالتصوف كمذهب يستمد خصائصه الاولى من الشريعة المطهرة أصولها وفروعها ، كتب ليبين للناس أن علم التصوف هو خلاصة علم الشريعة ، وأن عمل المتصوفة هو ثمرة العمل بالشريعة ، وأن هذا العمل اذا قام على الاخلاص والمراقبة فتح أبوابا من المعرفة والعلم ، لا تفتح بغير المجاهدة والصبر على مشقة التعبد ومحاسبة النفس على خطراتها ، وأن هذه الابواب من العلم والمعرفة لا يقوم عليها الا من نور الله قلبه ، وأراه بعين بصيرته من المعارف والعلوم ما لا يراه الواقفون مع عقولهم عند ظواهر النصوص ، وهذا ما يسميه علم الباطن ، ولكنه يربطه بعلم الشريعة برباط لا ينفصم .

أما الامام أبو القاسم القشيري فقد كان رحمه الله تعالى في رسالته صورة صادقة للتصوف في ذروة مراحله ، ونهاية أطواره ، كمذهب مستقل

بين مذاهب الاسلام فى طريقة تفكيره فى الاعتقاد والتعبد ، وصـــورة صادقة للمتصوفة كفرقة من فرق المسلمين ، لها طريقتها الخاصة فى فهم النصوص وتأسيس العقيدة وتطبيق أصولها وفروعها فى الاعـــــمال والمجاهدات ٠

وكل من جاء بعد القشيرى اما آخذ منه ما تمج بدلوه ، نازع من منبعه ؛ وأما متفلسف لما أخذ منه ؛ مستمطر غيثه ؛مستظل بظله : واما هارب من طريقه متستر تحت بعض أفكاره ومبادئه ٠

وهؤلاء الهاربون هم الذين فلسفوا التصوف وعقـــدوا طرائقه ، وأدخلوا عليه غرائب العقائد الوثنية ، وشردات النحـــل والمـــذاهب الالحادية ، كالذين هموا بوحدة الوجود ، أو الذين قالوا باســــقاط التكاليف عن عارفيهم الواصلين الى الالحاد والاباحية من كل ما يخـالف أصول الاسلام وعقائده ٠

تصوف الغزالى

جاء الغزالى فوجد التصوف مذهبا قائم الدعائم ، واضح المعـــالم بأصوله وقواعده العلمية ومؤلفاته الضافية ، ووجد المتصوفة فرقة من المسلمين لها خصائصها المميزة ، ولها كيانها المستقل فى طريقة تأسيس عقائدها ، وفى طريقة تعبدها ، بل وجدها فى بلده ، وفى بيته ، حضنته بآدابها وسلوكها طفلا ، ووجهته بصدقتهـــا فى المســـامنة مع التخلق الى الاشتغال بالعلم ، فعن طريقها على يد شيخه وصى أبيه عليه وعلى أخيه عرف طريقه الى المدارس العلمية ، وجلس فى حلقاتها يسمع عن أئمتها الفقه فى بلده طوس ، وفى جرجان ثم يرحل الى أســـتاذ عصره امام الحرمين فيلقاه فى نظامية نيسابور ، يحف حوله طائفة من أذكياء الشـــباب ، يأخذون عنه أصول الفقه وأصول الدين ، والمنطق ، والحكمة ويتعلمون منه طرائق الجدل والمناظرة فيزاحمهم الغزالى وهو غض الشباب حتى زحمهم ، ونافسهم على علوم الامام حتى غلبهم ، وتشمخ حتى تضلع ، ولما توفى أستاذه رحل الى نظام الملك الوزير العالم الصوفى ، فوجد للصوفية عنده مقامهم الذى لا يسامى فخالطهم وعاشرهم ، وجلس الى حلقـــاتهم ونظر الى سهرهم الليل وظمأهم بالنهار قياما لله بحق العبودية ، وسمع كلامهم ، واستطلع بواطنهم واستجلى أنوارهم ، ثم رحل الى بغداد وعاد الى نيسابور فوجدهم قياما فى خلواتهم على قدم الاخلاص ، طارحوا الدنيا بما فيها من أهواء وشهوات وسمعة وجاه ، وسلطان ، وتعزز بالعلم ،وكان الغزالى قد بلغ من ذلك كله المبلغ الذى ليس فوقه درجة لمستزيد وليس

وراءه غاية لمريد ، ذكاء خارق وعلم غزير ، جمع كافة معارف عصره ، وهو عصر كان أجمع العصور للعلم بأنواعه والمعرفة على سائر ضروبها ، الى جاه عريض وسلطان ينافس سلطان الخلفاء والامراء في الدولة ، وغلبة في الجدل والمناظرة ورياسة في التدريس . وشهرة طبقت الشرق والغرب ، وسمعة ملات آفاق الارض .

ثم ماذا ؟ انها عناية الله تعالى هي التي وجهت الغزالي الى الانضواء تحت لواء طائفة الصوفية بعد هذا الاستعداد العلمي العظيم الذي انفرد به الغزالي في عصره حتى لقب بحجة الاسلام .

وخصيصة الغزالي انه مفكر ثائر ، لا يؤمن حتى يفهم ولا يفهم حتى يدرس ويبحث وقد درس وعلم وفهم وحصل . كل ما وعته العقـــول والافكار ، ونظر الى نفسه بعد كل ذلك فظهر له كما يقول (انه لا مطمع له في سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب عن الشواغل والعلايق . ثم اني لا حظت أحوالي فاذا انا منغمس في العلايق . وقد احدقت بي من الجوانب،ولاحظت اعمالي واحسنها التدريس والتعليم فاذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمـــة ولا نافعة في طريق الآخرة ، ثم تفكرت في نيتي في التدريس فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت اني على شفا جرف هار ، واني قد اشفيت على النار ان لم اشتغل بتلافي الاحوال) (١)

وصمم العزم واقبل بهمته على طريق الصوفية ، وعلم ان طريقتهم انما تتم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله وكان العلم أيسر عليه من العمل .

وهكذا آمن الغزالي بالصوفية والتصوف ، وآمن ان فيها دواءه من أمراض الدنيا وشهواتها وانهما الطريق الموصل الى الله ، والسبيل المؤدي الى الفوز في الآخرة برضوانه .

ولكن الغزالي ربيب العلم والمعرفة ، صاحب العقل العبقري ، لا يمكن ان يسلك طريقا الا بعد ان يجوسه بعلمه ، ويختبره بعقله ، فاتجه الى علوم الصوفية فوجدها ممهدة في كتب المحاسبي ، وأبي طالب المكي ، وابي القاسم القشيري،وفي المتفرقات المأثورةعن أكابرهم يتلقاها بالسماع.

(١) المنقذ من الضلال

من ثقافتهم ، فعكف على هذا المحصول العلمي يدرسه ويبحثه حتى أطلع على كنه مقاصد أصحابه ، وظهر له انهم خصوا بما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحــال وتبدل الصفات ، وعلم الغزالي يقينا ان الصوفية أرباب احوال لا اصحاب اقوال ، وان مايمكن تحصيله من علومهم بطريق العلم فقد حصلته ولم يبق الا ماذ سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك ·

يقول الغزالي : وكان قد حصل معي من العلوم التي مارســـتها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية ايمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر ، فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت في نفسي لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها ·

لم يتعب الغزالي رحمه الله تعالى في تحصيل علوم الصــوفية لان علومه التي كانت معه وايمانه بعلوم الصـــوفية وأحوالهم يسر عليـــه التحصيل من اقرب طريق ·

بيد أنه تعب في مجاهدة النفس وصرفها من مألوفـــها مما كان منغمسا فيه من أمور الدنيا التي وصفها ، فاجتمع بأشياخ الصوفية وسلم اليهم قياده يرشدونه ويربونه ويلاحظونه في ترقياته وأحواله ، فيمتثل امرهم ويسمع قولهم ، ويلبي اشاراتهم · يقول الزبيدي في شرح الاحياء وهو مأخوذ من كلام عبد الغافر الفارسي كما تقدم (فاقتدى بصـــحبة الفارمدي واستفتح منه الطريقة ، وامتثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والامعان في النوافل ، واستدامة الاذكار ، والجـــد والاجتهاد الى ان جاز تلك العقبات وتكلف تلك المشاق وما تحصل على ما كان يطلبه) ·

وقد سبق ان أشرنا الى أخذه عن شيخه يوسف النساج ، وانتهى الى انه فتح عليه فتحا علميا لا فتحا لدنيا ، وانه ادرك ان الكتابة على الصفاء الاول أثبت من الكتابة على المحو بعد الاثبات ·

لكن الغزالي يقول في (المنقذ من الضلال) : وانكشف لي في اثناء هذه الخلوات امور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي اذكره لينتفع به اني علمت يقينا ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعـالى خاصة وان سيرتهم احسن السير ، وأن طريقتهم أصوب الطرق واخلاقهم أزكى الاخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكم الحكماء ، وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم واخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا الى ذلك سبيلا ، وان جميع حركاتهم وسكناتهم في

ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به .

ثم يقول الغزالى ، وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها ـ وهى اول شروطها ـ تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجازى منها مجرى التحريم من الصلوات استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله ، وهذا آخرها بالاضافة الى ما يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها وهى على التحقيق أول الطريقه ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك اليه ، ومن أول الطريقة تبتدى المكاشفات والمشاهدات ، حتى انهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الانبياء ويسمعون منهم ، ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والامثال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، ولا يحاول التعبير عنها معبر الا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه .

ثم قال : وعلى الجملة ينتهى الامر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ ، وقد بينا وجه الخطأ فى كتاب (المقصد الاسنى) .

والغزالى الذى يؤمن بالصوفية هذا الايمان الذى جر عليه نقد المتفقهة والمحدثين ، ورموه بسببه عن قوس واحدة من سهام من الطعن والتجريح مما قدمنا بعضه ، لا يلغى عقله مع السادة الصوفية اذا وصل الامر الى أساس العقيدة التى قضى عمره ينافح عنها ويكافح فى سبيلها جميع الطوائف والفرق ، ولا يترك علمه ومنطقه العقل الذى اسس عليه الجدال فى سبيل الدفاع عن العقيدة حتى حصنها تحصينا قويا ووقف يحميها ويذود عنها حتى لقبته الامة كلها (حجة الاسلام) .

والذى أشار اليه من بيان الخطأ على ما يتخيله من انتهى به الامر الى القرب من الحلول والاتحاد والوصول هو الذى وقع فيه كثير ممن ذلت أقدامهم ، والغزالى يذكر فيهم بعض الاكابر ويرد عليهم ونحن لسوق هذا الرد لبيان أن الغزالى ثم يستطع ان ـ يتخلى عن علومه الكلامية ، وهى التى كانت حصنه الذى حفظه من الوقوع فيما وقع فيه غيره .

قال الغزالى فى شرح أسماء الله الحسنى بعد أن ذكر ردف كل اسم شرحه تنبيها على ما للعباد من حظ فى هذا الاسم . (ولقد سمعت الشيخ أبا على الفارمدى يحكى عن شيخه أبى القاسم المكركانى قدس الله روحهما انه قال : ان الاسماء التسعة والتسعين تصير أوصافا للعبد السالك وهو بعد فى السلوك غير واصل وهذا الذى ذكره ان أراد به شيئا يناسب ما أوردناه فهو صحيح ، ولا يظن به الا ذلك ويكون فى اللفظ نوع من

التوسع والاستعارة فان معاني الاسماء هي صفات الله تعالى وصفاته لا تصير صفة لغيره ولكن معناه انه يحصل به ما يناسب تلك الاوصاف كما يقال فلان حصل علم استاذه وعلم الاستاذ لا يحصل للتلميذ بل يحصل له مثل علمه ، وان ظن ظان ان المراد به ليس ما ذكرناه فهو باطل قطعا فاني أقول : القائل إن معاني اسماء الله صارت أوصافا له لا يخلو اما انه عنى به غير تلك الصفات او مثلها فان عنى به مثلها فلا يخلو اما انه عنى به مثلها مطلقا من كل وجه ، واما ان عنى به مثلها من حيث الاسم والمشارك في عموم الصفات دون خواص المعاني فهذان قسمان ، وان عنى به بعينها فلا يخلو اما ان يكون بطريق الانتقال بالنسبة من الرب الى العبد اولا بالانتقال ، فان لم يكن بالانتقال ، فلا يخلو ، اما أن يكون باتحاد ذات العبد بذات الرب حتى يكون هو هو فيكون صفاته صفاته ، واما ان يكون بطريق الحلول وهذه اقسام ثلاثة وهو الانتقال والاتحاد والحلول فهذه خمسة أقسام الصحيح منها قسم واحد وهو ان يثبت للعبد من هذه الصفات أمور تناسبها على الجملة وتشاركها في الاسم ولكن لا تماثلها مماثلة تامة كما ذكرناه في التنبيهات وأما القسم الثاني وهو ان يثبت له أمثالها على التحقيق فمحال فان من جملتها ان يكون له علم محيط بجميع المعلومات حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في الارض ولا في السموات وان يكون له قدرة واحدة تشمل جميع المخلوقات حتى يكون بها خالق السموات والارض وما بينهما وكيف يتصور هذا لغير الله تعالى ! وكيف يكون العبد خالق السموات والارض وما بينهما وهو جملة ما بينهما ! فكيف يكون خالق نفسه ثم ان ثبتت هذه الصفات لعبدين يكون كل واحد منهما خالق صاحبه فيكون كل واحد منهما خالق من خلقه وكل ذلك ترهات ومحاولات .

وأما القسم الثالث وهو انتقال عين صفات الربوبية فهو أيضا محال لان الصفات يستحيل مفارقتها للموصوفات وهذا لا يختص بالذات القديمة بل لا يتصور أن ينتقل عين علم زيد الى عمرو بل لا قيام للصفات الا بخصوص الموصوفات ولان الانتقال يوجب فراغ المنتقل عنه فيوجب ان تعرى بالذات التي كان عنها انتقال الصفات الربوبية عن الربوبية وصفة تها وذلك أيضا ظاهر الاستحالة .

وأما القسم الرابع وهو الاتحاد فذلك أيضا أظهر بطلانا لان قول القائل ان العبد صار هو الرب كلام متناقض في نفسه بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه عن أن يجري اللسان في حقه بأمثال هذه المحالات ونقول قولا مطلقا أن قول القائل ان شيئا صار شيئا آخر محال عقل الاطلاق لانا نقول اذا عقل زيد وحده وعمرو وحده ثم قيل ان زيدا صار عمرا واتحد به فلا يخلو عند الاتحاد اما أن يكونا كلاهما موجودين أو كلاهما معدومين أو زيد موجود وعمرو معدوم أو بالعكس ولا يمكن قسم وراء

هذه الاربع فان كانا موجودين فلم يصير أحدهما عين الآخر بل عين كل واحد منهما موجود وانما الغاية ان يتحد مكانهما وذلك لا يوجب الاتحاد فان العلم والارادة والقدرة قد تجتمع في ذات واحدة ولا تتباين محالها ولا تكون القدرة هي العلم ولا الارادة ولا يكون قد اتحد البعض بالبعض وان كانا معدومين فما اتحدا بل عدما ولعل الحادث شيء ثالث وان كان احدهما معدوماً والآخر موجودا فلا اتحاد اذ لا يتحد موجود بمعدوم فالاتحاد بين الشيئين مطلقا محال هذا جار في الذوات المتماثلة فضلا عن المختلفة فانه يستحيل أن هذا السواد ذاك السواد كما يستحيل أن يصير هذا السواد ذلك البياض أو ذلك العلم ، والتباين بين العبد والرب اعظم من التباين بين السواد والعلم فاصل الاتحاد اذا باطل وحيث يطلق الاتحاد ويقال هو هو ولا يكون الا بطريق التوسع والتجوز اللائق بعادة الصوفية والشعراء فانهم لاجل تحسين موقع الكلام من الافهام يسلكون سبيل الاستعارة كما يقول الشاعر :

(أنا من أهوى ومن أهوى أنا)

وذلك مؤول عند الشاعر فانه لا يعني به أنه هو تحقيقا بل كأنه هو فانه مستغرق الهم به كما يكون هو مستغرق الهم بنفسه فيعبر عن هذه الحالة بالاتحاد على سبيل التجوز وعليه ينبغي أن يحمل قول أبي يزيد حيث قال انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها فنظرت فاذا أنا هو ويكون معناه أن من ينسلخ من شهوات نفسه وهواها وهمها فلا يبقى فيه متسع لغير الله ولا يكون له هم سوى الله تعالى فاذا لم يحل في القلب الا جلال الله وجماله حتى صار مستغرقا به يصير كأنه هو لا أنه هو تحقيقا .

وفرق بين قولنا كأنه هو وبين قولنا هو هو ، لكن قد يعبر بقولنا هو هو عن قولنا كأنه هو كما أن الشاعر تارة يقول كأني من أهوى وتارة يقول أنا من أهوى وهذه مزلة قدم فان من ليس له قدم راسخة في المعقولات ربما لم يتميز له أحدهما عن الآخر فينظر الى كمال ذاته وقد تزين بما تلألأ فيه من حلية الحق فيظن انه هو فيقول انا الحق وهو غالط غلط النصارى حيث رأوا ذلك في ذات عيسى عليه السلام فقالوا هو الاله بل غلط من ينظر الى مرآة قد انطبع فيها صورة متلونة فيظن أن تلك الصورة هي صورة المرآة وان ذلك اللون لون المرآة وهيهات . بل المرآة في ذاتها لا لون لها وشأنها قبول صور الالوان على وجه يتخايل الى الناظرين الى ظاهر الامور ان ذلك هي صورة المرآة حتى أن الصبي اذا رأى انسانا في المرآة ظن ان الانسان في المرآة فكذلك القلب خال عن الصور في نفسه وعن الهيئات وانما هيئته قبول معاني الهيئات والصور والحقائق فما يحله يكون

كالمتحد به لا انه متحد به تحقيقا ومن لا يعرف الزجاج والخمر اذا رأى زجاجة فيها خمر لم يدرك تباينهما فتارة يقول لاخمر وتارةيقول لازجاجة كما عبر عنه الشاعر حيث قال :

رق الزجاج وراقت الخمر   فتشابها فتشاكل الامـــر
فكأنما خمـــــر ولا قدح   وكأنما قـــدح ولا خمـــر

وقول من قال منهم :

أنا الحق فاما أن يكون معناه معنى قول الشاعر

أنا من أهوى ومن أهـــوى أنا

واما ان يكون قد غلط فى ذلك كما غلطت النصارى فى ظنهم اتحاد اللاهوت بالناسوت وقول ابى يزيد ان صح عنه (سبحانى ما أعظم شانى) اما أن يكون ذلك جاريا على لسانه فى معرض الحكاية عن الله تعالى كما لو سمع وهو يقول (لا اله الا أنا فاعبدنى) لكان يحمل على الحكاية واما أن يكون قد شاهد كمالا لاحظه من صفة القدس على ما ذكرنا فى الترقى بالمعرفة عن الموهومات والمحسوسات وبالهمة من الحظوظ والشـــهوات فاخبر عن قدس نفسه فقال سبحانى ورأى عظم شأنه بالاضافة الى شان عموم الخلق فقال ما أعظم شانى وهو مع ذلك يعلم ان قدسه وعظم شأنه بالاضافة الى الخلق فلا نسبة له الى قدس الرب تعالى وعظم شأنه ويكون قد جرى هذا اللفظ على لسانه فى سكر وغلبة حـــال فان الرجـــوع الى الصحو واعتدال الحال يوجب حفظ اللسان عن الالفاظ الموهمة وحـــال السكر ربما لا يحتمل ذلك فان جاوزت هذين التأويلين الى الاتحاد فذلك محال قطعا فلا تنظر الى مناصب الرجال حتى تصدق بالمحال بل ينبغى ان تعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال .

(واما القسم الخامس) وهو الحلول فذلك يتصور بأن يقال ان الرب حل فى العبد أو العبد حل فى الرب تعالى رب الارباب عن قـــول الظالمين وهذا لو صح لما أوجب الاتحاد ولا ان يتصف العبد بصــــفات الرب فان صفات الحال لا تصير صفة المحل بل تبقى بصفة الحال كما كان ووجـــه استحالة الحلول لا يفهم الا بعد فهم معنى الحلول فان المعانى المفـــردة اذا لم تدرك بطريق التصور لم يمكن ان يعلم نفيها أو اثباتها فمـــن لا يدرى معنى الحلول فمن أين يدرى أن الحلول موجود أو محال فنقول المفهوم من الحلول امران احدهما النسبة التى بين الجسم وبين مكانه الذى يكـــون فيه وذلك لا يكون بين الا جسمين فالبرىء عن معنى الجسمية يســـتحيل فى حقه ذلك . والثانى النسبة التى بين العرض والجوهر فان العـــرض يكون قوامه بالجوهر فقد يعبر عنه بأنه حال فيه وذلك محال على كل ما

قوامه بنفسه فدع عنك ذكر الرب تعالى فى هذا المعرض فان كل ماقوامه بنكشف له جلية الحق ويصير مستغرقا به فان نظر بمعرفته فلا يعرف الا بنفسه يستحيل أن يحل فى ما قوامه بنفسه الا بطريق المجاورة الواقعة بين الاجسام فلا يتصور الحلول بين عبدين فكيف يتصور بين العبد والرب تعالى واذا بطل الحلول والانتقال والاتحاد والاتصاف بأمثال صفات الله تعالى على سبيل الحقيقة لم يبق لقولهم معنى الا ما اشرنا اليه فى التنبيهات وذلك يمنع من اطلاق القول بأن معانى اسماء الله تصير اوصافا للعبد الا على نوع من التقييد خال عن الايهام والا فمطلق هذا اللفظ موهم

فان قلت فما معنى قوله ان العبد مع الاتصاف بجميع ذلك سالك لا واصل فما معنى السلوك وما معنى الوصول ؟

فاعلم ان السلوك هو تهذيب الاخلاق والاعمال والمعارف وذلك اشتغال بعبارة الظاهر والباطن والعبد فى ذلك مشغول بنفسه عن ربه الا انه مشتغل بتصفيته باطنه ليستعد للوصول وانما الوصول هو ان ينكشف له جلية الحق ويصير مستغرقا به فان نظر الى معرفته فلا يعرف الا الله تعالى وان نظر الى همته فلا همة له سواه فيكون كله مشغولا بكله مشاهدة وهما لا يلتفت فى ذلك الى نفسه ليعم ظاهره بالعبادة وباطنه بتهذيب الاخلاق وكل ذلك طهارة وهى البداية وانما النهاية ان ينسلخ من نفسه بالكلية ويتجرد له فيكون كأنه هو ، وذلك هو الوصول ..

فان قلت الكلمات الصوفية تنبىء عن مشاهدات انفتحت لهم فى طور الولاية والعقل يقصر عن درك الولاية ومما ذكروه تصرف ببضاعة العقل ..

فاعلم انه لا يجوز ان يظهر فى طور الولاية ما يقضى العقل باستحالته نعم يجوز ان يظهر فيها ما يقصر العقل عنه بمعنى انه لا يدركه بمجرد العقل ، مثاله انه يجوز ان يكاشف الولى بان فلانا سيموت غدا ولا يدرك ببضاعة العقل بل يقصر العقل عنه ولا يجوز ان يكاشف بان الله غدا سيخلق مثل نفسه فان ذلك يحيله العقل لا انه يقصر عنه وابعد من ذلك ان يقول : ان الله سيجعلنى مثل نفسه وأبعد منه ان يقول : ان الله سيصيرنى نفسه اى أصير أنا هو ، لان معناه انى حادث وانه يجعلنى قديما ولست خالق السموات والارضين والله يجعلنى خالق السموات والارضين وهذا معنى قوله نظرت فاذا أنا هو ، اذا لم يؤول وحمل على ظاهره ، ومن صدق بمثل هذا المحال فقد انخلع عن غريزة العقل ولم يتميز عنده ما يعلم عما لا يعلم فليصدق بأنه يجوز ان يكاشف ولى بأن الشريعة باطلة وانها وان كانت حقا فقد بقلبها الله باطلا وانه جعل جميع اقاويل الانبياء كذبا وان من قال يستحيل ان ينقلب الصدق كذبا فانما يقول ببضاعة العقل فان انقلاب الصدق كذبا ليس بأبعد من انقلاب

الحادث قديما والعبد ربا ومن لا يفرق بين ما أحاله العقل وبين مالاينـــاله العقل فهو أخس من أن يخاطب فليترك وجهله .

قلنا : هذا فصل مهم جدا في بيان صوفيــة الغزالي ذكرناه بطوله لانه يبين بيانا شافيا أن الغزالي رحمه الله دخل في الصوفية بعلمه وعقله وان تضلعه من علم الكلام ومنطق العقل جعله الا يقبل في عقيدته مالا يقره عقله ولا يرضاه علمه ، مهما كان مقام من صدر عنه ذلك ، فاعتداد أبي حامد بعلمه وعقله حصنه من مزالق الجموح عند الصـــــوفية وجعله يردد في كتبه تلك الكلمة النابغة الحكيمة الجليلة (لا تنظر الى مناصب الرجـــال حتى تصدق بالمحال ، بل ينبغي أن تعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال)

للغزالي فصل آخر في كتاب (المقصد الاسنى) تكلم فيه على معرفة الله تعالى عند الصوفية ، ورفع عنهم الاشتباه الذى قد توهمه بعــض عبارات منسوبة الى أكابرهم فقال : (ان خاصــــية الالهية انه الموجود الواجب بذاته التي عنها يوجد كل ما في الامكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال ... وهذه الخاصية ليست الا لله تعالى ولايعرفها الا الله تعالى ، ولا يتصور أن يعرفها الا هو أو من كان مثله ، واذا لم يكن له مثل فلا يعرفها غيره .

فاذا الحق ما قاله الجنيد رحمه الله تعالى ، حيث قال : (لا يعــرف الله الا الله تعالى) ولذلك لم يعط أجل خلقه الا أسماء حجبه بها فقال : سبح اسم ربك الاعلى ، فوالله ما عرف الله غير الله تعالى في الدنيا والآخرة

وقيل لذى النون ، وقد أشرف على الموت ، ماذا تشتهي ؟ فقال (ان أعرفه قبل أن أموت ولو بلحظة) وهذا الآن يشوش قلوب أكثر الضعفاء ويوهم عندهم القول بالنفي والتعطيل ، وذلك لعجزهم عــن فهم مثـــل هذا الكلام .

وانا أقول : لو قال القائل : لا أعرف الا الله تعالى ، كان صادقا ، ولو قال : لا أعرف الله تعالى لكان صادقا . ومعلوم . ان النفي والاثبات لا يصدقان معا ، بل يتقاسمان الصدق والكذب ، فان صدق النفي كذب الاثبات وبالعكس ، ولكن اذا اختلف وجه الكلام تصور الصــــــدق في القسمين ...

فان قلت : فقولنا : انه الواجب الوجود الذى عنه وحده يوجد كل ما في الامكان وجوده عبارة عن حقيقته ، وقد عرفنا هذا ؟ فأقول هيهات هيهات ، فان قولنا : واجب الوجود عبارة عن استغنائه عن العلة والفاعل ، وهذا يرجع الى سلب السبب عنه ؛ وقولنا : يوجد عنه كل ما ، يرجع الى اضافة الافعال الى الله تعالى ...

فان قيل : فما السبيل الى معرفته ؟ فأقول : لو قال لنا صـــبي أو عنين ما السبيل الى معرفة لذة الوقاع وادراك حقيقته ؟ قلنا : هاهنا

سبيلان ، أحدهما أن نصفه لك حتى تعرفه ، والآخر أن تصبر حتى تظهر فيك غريزة الشهوة ثم تباشر الوقاع حين تظهر فيك لذة الوقاع فتعرفه ، وهذا السبيل الثاني هو السبيل المحقق المفضي الى حقيقة المعرفة ، فاما الاول فلا يفضي الا الى توهم وتشبيه للشيء ان يسمى لذة ، ومهما ظهرت الشهوة وذاق علم قطعا انه لا يشبه حلاوة السكر ، وان ما كان توهمه لم يكن على الوجه الذي توهمه ...

وكذلك لمعرفة الله سبيلان ، أحدهما قاصر ، والآخر مسدود : اما القاصر فهو ذكر الاسماء والصفات وطريقة التشبيه بما عرفناه من أنفسنا فانا عرفنا أنفسنا قادرين عالمين احياء متكلمين ، ثم سمعنا ذلك في أوصاف الله ، وعرفنا بالدليل ففهمناه فهما قاصرا كفهم العنين لذة الجماع بما وصف له من لذة السكر .. وفائدة تعريف الله تعالى بهذه الاوصاف ايضا ايهام وتشبيه ، ومشاركة في الاسم بما لا يشبهه ... أما الايهام فانه يتوهم أن ذلك أمر طيب على الجملة ، وأما التشبيه فهو أنه شبهه بحلاوة السكر في الاسم ، لكن نقطع التشبيه بأن يقال ليس كمثله شيء فهو حي لا كالاحياء وقادر لا كالقادرين ... وأما السبيل المسدود فهو أن ينتظر العبد أن تحصل له صفات الربوبية كلها حتى يصير ربا ، كما ينتظر العنين أن يبلغ فيدرك لذة الوقاع ، وهذا السبيل مسدود ممتنع ، اذ يستحيل أن تحصل تلك الحقيقة لغير الله تعالى ، وهذا هو السبيل الى المعرفة المحققة لاغير ، وهو مسدود قطعا الا على الله تعالى وتقدس وحده ، فاذا يستحيل أن يعرف الله تعالى بالحقيقة غير الله تعالى ...

فكيف يتعجب المتعجبون من ولنا : لم يحصل أهل الارض والسماء من معرفة الله الا على الاسماء والصفات ؟...

فان قلت : فما نهاية معرفة العارفين بالله تعالى ؟ فنقول : نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، ومعرفتهم بالحقيقة هي أنهم يعرفونه وانهم لا يمكنهم البتة معرفته فانه يستحيل أن يعرف الله تعالى المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية الا الله تعالى ، فاذا انكشف لهم ذلك انكشافا برهانيا كما ذكرناه فقد عرفوه الى بلوغ المنتهى الذي يمكن في حق الخلق من معرفته ، وهو الذي أشار اليه الصديق الاكبر حيث قال : (العجز عن درك الادراك ادراك) بل هو الذي عناه سيد البشر صلوات الله تعالى عليه وسلامه حيث قال : (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) ولم يرد أنه عرف منه ما لا يطاوعه لسانه في العبارة عنه ، بل معناه : أني لا أحيط بمحامدك وصفات الهيتك ، وانما أنت المحيط بها وحدك ...

ويتفاوت الخلق في معرفة الله تعالى بقدر ما انكشف لهم من معلومات

الله تعالى وعجائب مقدوراته وبدائع آياته فى الدنيا والآخرة والملك والملكوت .

فاذا قد عرفت كيف تتفاوت الخلق فى بحار معرفة الله ، وان ذلك لا نهاية له وعرفت أن من قال : لا يعرف الله الا الله فقد صدق ، ومن قال : لا أعرف الا الله فقد صدق ، فانه ليس فى الوجود الا الله وأفعاله .

ثم ختم الامام الغزالى هذا الفصل بقوله : « ولنقبض عنان البيان فقد خضنا لجة بحر لا ساحل له ، وامثال هذه الاسرار لا ينبغى أن تبتذل بايداعها الكتب ، واذ جاء عرضها عند غير مقصود للكشف عنه » .

والغزالى رحمه الله تعالى دخل الصوفية على قدم المجاهدة والرياضة والقيام لله تعالى بحق العبودية من استدامة الاذكار والجد فى وظائف العبادات — والامعان فى النوافل وتكلف المشاق فى محاسبة النفس ومراقبتها حتى كان هذا النهج معروفا به منسوبا اليه بين طوائف المتصوفين .

ومن هنا عقد بعض متأخرى الصوفية موازنة بين طريق الغزالى ، وطريق غيره من أرباب القلوب ، قال ابن المبارك السجلماسى فى كتاب الابريز : سئل الشيخ العارف عبد العزيز الدباغ : ما الفرق بين طريقة الولى العارف الشاذلى واتباعه . وطريقة الغزالى واتباعه حتى أن الاولى مدارها كلها على الشكر والفرح بالمنعم من غير مشقة ولا تعب والاخرى مدارها على الرياضة والتعب والمشقة والسهر والجوع وغيرهما فهل هما سيدى مترافقان على الرياضة وانما يأمر الشاذلى بالشكر بعد القرب للوصول أو عدمه ، أو هو أمر بالشكر والفرح بالله من أول وهلة وحين البداية وهل الطريقان يمكن سلوكهما لرجل واحد أولا يمكن أن ينتفع باحداهما الا بالاعراض عن الاخرى .

فأجاب رضى الله عنه بأن طريقة الشكر هى الاصلية وهى التى كانت عليها قلوب الانبياء والاصفياء من الصحابة وغيرهم وهى عبادة الله على اخلاص العبودية والبراءة من جميع الحظوظ مع الاعتراف بالعجز والتقصير وعدم توفية الربوبية حقها ويكون ذلك رقى القلب على ممر الساعات والازمان فلما علم تبارك وتعالى الصدق فى ذلك أثابهم بما يقتضيه كرمه من الفتح فى معرفته ونيل اسرار الايمان به عز وجل .

فلما سمع أهل الرياضة بما حصل لهؤلاء من الفتح جعلوا ذلك هو مطلوبهم ومرغوبهم فجعلوا يطلبونه بالصيام والقيام والسهر ودوام الخلوة حتى حصلوا على ما حصلوا ، فالهجرة فى طريق الشكر كانت من أول الامر الى الله والى رسوله لا الى الفتح ونيل المكاشفات ، والهجرة فى طريق الرياضة كانت للفتح وهو فى الاولى مجهول لم يحصل من العبد

تشوق اليه فيهما العبد فى مقام طلب التوبة والاستغفار من الذنوب اذ جاءه الفتح المبين والطريقتان على صواب لكن طريقة الشكر أصــــوب واخلص والطريقتان متفقتان على الرياضة لكنها فى الاولى رياضة القلوب بتعلقها بالحق سبحانه والزامها العكوف على بابه والالجأ الى الله فى الحركات والسكنات والتباعد من الغفلة المتخللة بين أوقات الحضور .

وبالجملة فالرياضة فيها تعليق القلب بالله عز وجل عــلى الدوام وان كان الظاهر غير متلبس بكثير عبــــادة واذا كان صـــاحبها يصــــوم ويفطر ويقوم وينام ويقارب النساء ويأتى بسائر وظائف الشرع التى تقتضيها رياضة الابدان .

ثم قال الشيخ الدباغ والغزالى امام حق وولى صدق ولاتنافى بين الطريقتين فيمكن للعبد أن يعلق قلبه بالله عز وجل فى ســـائر حركاته وسكناته ويقيم ظاهره فى المجاهدة والرياضة .

ويظهر لنا انهما منهجان عند المتصوفة ، عبر عنهما الامام العليم أبو سعيد الخراز فى قوله فى بيان المعرفة والطريق الموصل اليها انها (تاتى من عين الجود ، ومن بذل المجهود) .

وقد كتب الغزالى رحمه الله تعالى فى « التصوف » كما كتب فى غيره من سائر الفنون والعلوم ، والمعروف المتعالم ان اشهر كتبه فى « التصوف » هو أعظمها على الاطلاق كتاب (احياء علوم الدين) وقد شــــغل الناس خاصتهم وعامتهم بهذا الكتاب ، ولا يزالون يشغلون به ، وذكرنا مـــا للعلماء فيه من نقد أو مدح .

(وكتاب الاحياء) فى جلالة قدره لاينكر الغزالى ان الناس صنفوا فى بعض معانيه ، ولكنه يذكر ان كتابه يمتاز عن مصنفات الناس فى موضوعه بخمسة أمور :

الاول — حل ماعقدوه وكشف ما اجملوه .

الثانى — ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه .

الثالث — ايجاز ماطولوه وضبط ما قرروه .

الرابع — حذف ما كرروه واثبات ما حرروه .

الخامس — تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الافهام لم يتعرض لها فى الكتب اصلا اذا الكل وان تواردوا على منهج واحد فلامستنكر ان يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لامر يخصه ، ويغفل عنه رفقاؤه ، أولا يغفل عن التنبيه ولكن يسهو عن ايراده فى الكتب ، أولا يســــهو ولكن

يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف ، فهذه خواص هذا الكتاب مع كونه حاويا لمجامع هذه العلوم .

والناظر فى كتاب (الاحياء)مع نظره فى كتب أئمة الصوفية الاربعة (المحاسبى ـ الخراز ـ أبى طالب المكى ـ القشيرى) وهم الذين تعرضنا لهم ولكتبهم باعتبارهم الذين قيدوا المذهب المتصوفة بعد تبديده وضبطوه بعد انتشاره ، ونظموه بعد انتشاره حتى اكتملت مقوماته واستقامت دعائمه فى مؤلفاتهم ، يرى ان كتب أولئك الائمة كانت مراجع للامام الغزالى فى تأليف (الاحياء) الى جانب علمه الغزير وعقله الكبير

وفى خزائن الصوفية يجد الباحثون مفتاح شخصية الغزالى رحمه الله لا باعتبار انه صوفى اعتنق الصوفية مذهبا ، فكتب فى احوال أهلها ومقاماتهم ، ووطد دعائم علومهم وانما باعتبار انفرد به الغزالى عن سائر الصوفية ، بل عن سائر العلماء .

ذلك هو ما نسميه (فقه النفس) فالغزالى (فقيه النفس)عبقرى العقل ، ونعنى بفقه النفس غوصه على اسرار الشريعة ، وبيان حكم احكامها بحقائق قلبية وأمور روحية تجعل من هذه الاحكام غايات محببة تنهض اليها النفوس راغبة محبة ، وذلك ما نجده فى كثير من كتب الغزالى ، ولا سيما درتها اليتيمة (الاحياء)ففيه من أسرار الشريعة ما لم يوجد فى غيره من كتب الصوفية ولا كتب الفقهاء ، والى هذا المعنى العظيم فى الغزالى يرجع انتهاؤه الى الصوفية واعتصامه بها حتى لقى الله على خير حالاتها صوفيا عليما ، وعليما صوفيا .

هل شـــك حجة الاســـلام

يجمع باحثو الغزالى على أنه رحمه الله شك وأمعن فى الشك ، وهم يعتمدون على اعترافات الغزالى نفسه بأنه (دام قريبا من شهرين كان فيهما على مذهب السفسطة) وبأنه تطلب العلم بحقائق الامور على وجه يقينى ينكشف معه العلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، وبأنه فتش عن علومه فوجد نفسه عاطلا عن علم موصوف بهذه الصفة الا فى الحسيات والضروريات وبأنه توجه الى النظر فيهما ليتيقن ان ثقته بالمحسوسات، وأمان الغلط فى الضروريات من جنس ما كان له من قبل فى التقليديات ، ومن جنس أمان أكثر الناس فى النظريات ، أم هو أمان محقق لا غدر فيه ولا غائلة له ؟

وبأنه أقبل يمتحن المحسوسات والضروريات لينظر هل يمكن أن يتمسك فيهـــا نفسه ؟ وبأنه انتهى به طـــول التشكيك الى أنه لا ثقة بالمحسوسات ، لان حاسة البصر وهى أقواها تريك الشىء موجودا وهو غير موجود ، والشىء غير موجود وهو موجود ، وتريك الكبـير صغيرا فبطلت عنده الثقة بالمحسوسات ، فاتجه الى العقليات الاولية ، وقال : لعله لاثقة الا بها ، ولكن المحسوسات اعترضت طريقه فى ثقته بالعقليات ، وأبانت له انه يحتمل أن يكون وراء حاكم العقل حاكم آخر اذا ظهر يكذب العقل فى حكمه وعدم ظهور ذلك لا يدل على استحالته .

وبأنه لما خطرت له هذه الخواطر وانقدحت فى النفس حاول علاجها فلم يتيسر له اذ لم يمكن دفع ذلك الا بدليل ، ولم يمكن نصب دليـــل الا من تركيب العلوم الاولية وهى المحسوسات والعقليات الضرورية ، فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب دليل ، فأعضل عليه هـــذا الداء ، ودام قريبا من شهرين كان فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى ذلك المرض وعادت النفس الى الصحـة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثقا بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف .

هذه هى اعترافات ابى حامد على نفسه فى الشك ملخصة من كتابه (المنقذ من الضلال) والاعتراف ـ كما يقولون أقوى أدلة الاثبات .

وكذلك اعتمد باحثو ابو حامد فى شكه على قوله فى آخر كتابه (ميزان العمل) (ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات الا ما يشكك فى اعتقادك الموروث لتنتدب لتطلب فناعيك به نفعا اذ الشكوك هى الموصلة الى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال) .

وهذا تحسين بالغ للشك ، لانه جعله موصلا للحق ، والحق عنده هو اليقين الذى لا ريب فيه ، ولا يمكن معه الغلط ، وجعل الشك طريق النظر الموصل الى ابصار الحقائق للخروج من العمى والضلال .

واذا كان يرى ذلك طريقا لغيره فبالحرى ان يكون طريقه هو الى معلوماته ونحن نقف من هذا الموضوع عند أبى حامد موقفه الشك فيه معتمدين على ان بعض الباحثين يرون ان الشك بدأ مع الغزالى منذ انحلت عنه رابطه التقليد فى سن قريبة عهد بسن الصبا ، وقد صرح بذلك الاستاذان (كامل عياد) و (جميل صليبة) فى مقدمتهما لكتاب (المنقذ من الضلال) وذلك كان — فى نظرهما — قبل مغادرته نيسابور للمرة الاولى فى وقت تلمذته لامام الحرمين .

ويرى (ديبور) فى كتابه تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، هذا الرأى، وبعضهم يذهب الى ان الشك تملك ابا حامد بعد خروجه من نيسابور الى المعسكر فى المدة التى اقامها فى حضرة نظام الملك .

وهذا الاضطراب يدل على عدم تحقيق هذه المسألة فى حياة الغزالى ، فلم يبق الا اصل وجودها المعتمد على اعتراف ابى حامد .

ولنا توجيه فى اعترافه ابى حامد يبرئه من الشك ويصحح الاعتراف ، ذلك ان — أبا حامد يقصد بهذا الكلام الذى شرح فيه اعترافه الى نوع من الاسلوب فى الحجاج وكان كثير الخصوم فى الجدل والمناظرات، فأراد بذلك ان يكسر شوكة خصومه عن طريق الايحاء ، ويحدث هزة فكرية فى المجتمع الذى كان ميدان نضاله ، كما يقصد الى التمهيد الى الجديد من أفكاره حتى يأمن ثورة العامة ، ويقصد الى تشكيك الناس فى الفلسفة التى انتهض للرد عليها ، والفلسفة انما تعتمد على أدلة العقل وبراهينه .

ومما يرشح ما ذهبنا اليه ان الغزالى فى هذه الفترات التى يزعم الباحثون ان الشك تملك فيها الشيخ الامام كان اصح نفسا واقوى عارضة ، وأصلب قناة أمام خصومه ، والشاك لا يمكن ان تكون معه هذه القوة ، ولكن الغزالى كان قويا مع خصومه ، قويا فى مصنفاته وتآليفه .

وقد تنبه الاستاذ (سليمان دنيا) في كتابه (الحقيقة في نظر الغزالي) الى ذلك فقال ، (وما يثير الدهشة ان شاكا في الحقيقة يصدر تأليف ايجابية حول الحقيقة ، ويدرس حول الحقيقة تدريسا ايجابيا) .

ثم قال : (لكني الاحظ على الغزالي في نقده للفلسفة انه غير مستجيب لداعي شكه ، لان قارئ كتاب التهافت يلاحظ ان صاحبه لا يزاول عملية الهدم فحسب ، بل هو يهدم ليفسح المجال لشيء معه لا يقوم على هذه الانقاض)

وذلك حيث يقول الغزالي : (ونحن لم نلتزم في هذا الكتاب الا تكذيب مذهبهم ، واما اثبات المذهب الحق فسنصنف فيه كتابا بعد الفراغ من هذا ... ونعتني فيه بالاثبات كما اعتنينا في هذا بالهدم)

وهذا واضح في ان الغزالي كان متثبتا من نفسه في هدمه لمذهب الفلاسفة ، ومتثبتا من نفسه في عزيمته اقامة بناء عقيدي يحل محلها ، فأين أثر الشك عند الغزالي ؟

على ان شك الغزالي في اعترافاته لم ينصب على عقيدته وانما انصب على مسالك العقيدة ، والعقيدة موجودة عند الغزالي قبل نظره في هذه المسالك ، ثم تشكيك الغزالي في مسالك الادلة ضعيف جدا ، لان الغزالي لا يغيب عنه ان البصر آلة ادراك للمحسوسات وتختلف باختلاف قوتها الخلقية ، وباختلاف قرب الاشياء وبعدها عنها ، وليس ذلك تضليلا في حقيقة العلوم ، وانما هو نقص في الالة وقوله في العقل أضعف من قوله في الحس ، لانه مبني على فرض وتخيل، لم يجد ما يقويه به الا حالة النوم والا ما يدعيه الصوفية من حالة ادراكية فوق ادراك العقل .

وكان أبا حامد رضي الله عنه أراد ان يخلص الى هذه النقلة العظيمة في حياته بالتمهيد لها بهذا القول في الشك ، تلك النقلة التي غيرت حياة أبي حامد تغييرا كليا ، ونعني بها صيرورته الى التصوف والصوفية تخلصا من حياته الاجتماعية التي عاشها طوال عمره الا قليلا مما ادركه في ظل الصوفية من الهدوء النفسي والعقلي وكان أبو حامد مشتبكا في حياته الاجتماعية بقيود صعبة ، لا يخلص منها الا بضرب من هذا اللون الفكري الذي يضعف القيود الاجتماعية ويمهد الطريق امامه للخلاص منها .

وهذا موضوع يحتاج الى بحث خاص ، وله أهميته في حياة ابي حامد ونرجو ان نتمكن من تحقيقه اذا انسأ الله في الاجل ، وانما قصدنا هنا الى التنبيه لعل احدا من الباحثين يشمر عن ساعد الجد فيحقق هذا الجانب من حياة هذا العبقري الذي شغل الدنيا بعلمه وعقله وروحه . رحم الله أبا حامد ورضي عنه وانزله منازل الصادقين .

فتاوى وآراء حسرة

والامام الغزالى يميل الى حرية العقل ، والانطلاق فى التفكير ، وله آراء مستقلة فى كثير من مسائل الدين يخالف فيها رأى الجمهور من العلماء ولكنها مدعمة بالدليل والبرهان .

ومن هذه المسائل التى أجاب فيها الغزالى برأى مستقـــل عن العصبية المذهبية ما أورده ابن خلكان فى ترجمة الكيا الهراسى اذ يقول وسئل الكيا عن يزيد بن معاويه فقال انه لم يكن من الصحابة لانه ولد فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه واما قول السلف فى لعنه ففيه لاحمد قولان تلويح وتصريح ولمالك قولان تلويح وتصريح ولابى حنيفـه قولان تلويح وتصريح ولنا قول واحد التصريح دون التلويح وكيف لا يكون كذلك وهو اللاعب بالنرد والمتصيد بالفهود ومد من الخمر وشعره فى الخمر معلوم ومنه قوله :

أقول لصحب ضـ -، الكأس شملهم :

وداعى صبابات الهوى يترنم

خـــذوا بنصيب ن نعيم ولذة :

لكل وان طال المدى يتصرم

ولا تتركوا يوم السرور الى غد :

فرب غد يأتى بما ليس يعلم

وكتب فصلا طويلا ثم قلب الورقة وكتب لو مددت ببياض لمددت العنان فى مخازى هذا الرجل .

رأى الغزالى

وقد افتى الامام ابو حامد الغزالى رحمه الله تعالى فى مثل هـــذه المسئلة بخلاف ذلك فانه سئل عمن صرح بلعن يزيد بحكم بفسقه أم هل يكون ذلك مرخصا له فيه ؟ وهل كان مريدا قتل الحسين رضى الله عنه ، أم كان قصده الدفع ، وهل يسوغ الترحم عليه أم السكوت عنه أفضل، تنعم بازالة الاشتباه مثابا فاجاب لا يجوز لعن المسلم أصلا ومن لعـن مسلما فهو الملعون ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المسلم ليس بلعان) وكيف يجوز لعن المسلم ولا يجوز لعن البهائم ، وقـــد ورد النهى عن ذلك وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة بنص النبى صلى الله عليه وسلم ، ويزيد صح اسلامه وماصح قتله الحسين رضى الله عنه ولا امره به ولا رضاه ومهما لا يصح منه لا يجوز ان يظن ذلك به فان اساءة الظن بالمسلم ايضا حرام وقد قال تعالى (اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم) وقال النبى صلى الله عليه وسلم (ان الله حرم من المسلم دمه وماله وعرضه وان يظن به ظن السوء) ومن زعم ان يزيد أمر بقتل الحسين رضى

الله عنه أو رضي به فينبغي ان يعلم به غاية الحماقة فان من قتل من الاكابر والوزراء والسلاطين في عصره لو اراد ان يعلم حقيقة من الذي امر بقتله ومن الذي رضي به ومن الذي كرهه لم يقدر على ذلك وان كان الذي قد قتل في جواره وزمانه وهو يشاهد ، فكيف لو كان في بلد بعيد وزمن قديم قد انقضى ؟ فكيف يعلم ذلك فيما انقضى عليه قريب من اربعمائة سنة في مكان بعيد ؟ وقد تطرق التعصب في الواقعة فكثرت فيها الاحاديث من الجوانب فهذا الامر لا يعلم حقيقته اصلا واذا لم يعرف وجب احسان الظن بكل مسلم يمكن احسان الظن به ومع هذا لو ثبت على مسلم أنه قتل مسلما فمذهب اهل الحق انه ليس بكافر ، والقتل ليس بكفر بل هو معصية ، واذا مات القاتل فربما مات بعد التوبة والكافر لو تاب من كفره لم تجز لعنته فكيف من تاب عن قتل ولم يعرف أن قاتل الحسين رضي الله عنه مات قبل التوبة (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) فاذن لا يجوز لعن احد ممن مات من المسلمين ومن لعنه كان فاسقا عاصيا لله تعالى ولو جاز لعنه فسكت لم يكن عاصيا بالاجماع بل لو لم يلعن ابليس طول عمره لا يقال له يوم القيامة لم لم تلعن ابليس ويقال للاعن لم لعنت ومن أين عرفت أنه مطرود ملعون والملعون هو البعيد من الله عز وجل وذلك غيب لا يعرف الا فيمن مات كافرا ، فان ذلك علم بالشرع وأما الترحم عليه فجائز بل هو مستحب بل هو داخل في قولنا في كل صلاة اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات فانه كان مؤمنا والله أعلم .

ومن هذه المسائل ما ذكره في كتاب (فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة) اذ يقول : (وأنا أقول ان للرحمة تشمل كثيرا من الامم السالفة ، وان كان أكثرهم يعرضون على النار ، اما عرضة خفيفة حتى في لحظة أو في ساعة ، وأما في مدة حتى يطلق عليهم اسم بعث النار ، بل أقول : ان أكثر نصارى الروم والترك — يقصد كل من بعدت دياره عن دار الاسلام ولم تبلغهم الدعوة فانهم ثلاثة أصناف صنف لم يبلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم اصلا فهم معذورون ، وصنف بلغهم اسمه ونعته وما ظهر عليه من المعجزات وهم المجاورون لبلاد الاسلام والمخالطون لهم وهم الكفار الملحدون وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم ولم يبلغهم نعته وصفته بل سمعوا منذ الصبا أوصافا ضد أوصافه الجميلة ، فهؤلاء عندي في معنى الصنف الاول ، أي أنهم معذورون ناجون ان شاء الله .

والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، والله ولي التوفيق

تم تحريره في مساء يوم الجمعة ٢٢ من ذي القعدة سنة ١٣٨١ هـ
الموافق ٢٧ من شهر ابريل سنة ١٩٦٢ م

من الشرق والغرب

تقدم

العالم والغرب

للمؤرخ الإنجليزي الكبير
أرنولد توينبي

ترجمة : عبد الواحد الإبياري
مراجعة: صالح جودت

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع جسر – روض الفرج

تليفون : ٤٥٣٤٦ – ٥٤٠٥٠ – ٩٣١٦٢٥

١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٢١٦٢٥

Bibliotheca Alexandrina
0247596

العدد ٩ الثمن ١٠ قرشا